

تكوين مصر

عبر العصور

بقلم

محمد شفيق غربال



تاريخ المصريين

٤٢

رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:
عبد العظيم الشبلي

تكوين مصر عبر العصور

بقلم
محمد شفيق غربال



١٩٩٠

الإخراج الفني وتصميم الغلاف : أسامة سعيد

● سلسلة من عشرة أحاديث أذاعها باللغة الانجليزية
من دار الاذاعة المصرية

محمد شفيق غربال

ونقلها الى اللغة العربية بمعاونة محمد رفعت

تقديم

أود في البداية أن أشكر السفير أشرف غربال ،
الذى أذن لي بإصدار طبعة ثانية من هذا الكتاب البالغ
الأهمية : « تكوين مصر » للمؤرخ العظيم الأستاذ محمد
شفيق غربال .

لم يكن محمد شفيق غربال مؤرخا عاديا من
المتخصصين في عصر معين من عصور تاريخ مصر ، على
الرغم من أنه يعد مؤرخا للتاريخ الحديث ، وإنما كان
موسوعيا ، بمعنى أن اهتماماته العلمية تجاوزت
التاريخ الحديث تتبعاً لتاريخ مصر عبر العصور ، حتى
العصر الفرعوني .

ومن هنا فان ما قدمه فى كتابه « تكوين مصر » يعد رؤية بانورامية شاملة لتاريخ مصر عبر العصور من منظور فلسفى ، ربما كان متأثرا فيه بأستاذه المؤرخ والفيلسوف البريطانى أرنولد توينبى ، الذى لم يقف عند عصر معين ، أو بلد معين أو حضارة معينة ، وانما درس كل الحضارات .

وهذه الرؤية البانورامية التى قدمها المؤرخ محمد شفيق غربال فى كتابه « تكوين مصر » ، يتعذر على غيره من المؤرخين تقديمها بالضرورة ، لارتباطهم بتخصصاتهم العلمية فى الحقب والعصور الزمنية المختلفة .

وأهمية هذه الرؤية التاريخية تتمثل فى الحين الصغير الذى صاغها فيه ، والذى لا يتجاوز مائة صفحة من كتاب متوسط القطع . وهو عمل تحليلى اعجازى لا يمكن لغير محمد شفيق غربال القيام به .

وقد خدمت الظروف المؤرخ محمد شفيق غربال فى تقديم هذه الرؤية حين دعى لالقاء عشرة أحاديث باللغة الانجليزية عن تاريخ مصر ، توجه من الاذاعة المصرية للعالم الخارجى . فكانت تلك هى الفرصة التى انتهزها لتقديم هذه الرؤية البانورامية الشاملة .

وتعميما للفائدة فقد قام بنقلها الى اللغة العربية
بمعاونة محمد رفعت وأصدرتها وزارة الارشاد القومي
فى كتيباتها فى عام ١٩٥٧ . وقد نفذت الطبعة فى
وقت قصير ، ولم يقدر لها اعادة الطبع حتى الآن ، رغم
أهمية العمل الجليل .

ولما كانت احدى الخدمات العلمية التى تقدمها هذه
السلسلة عن « تاريخ المصريين » هى اعادة طبع الكتب
التاريخية الهامة التى نفذت طبعاتها ، فقد كنت حريصا
على الاتصال بالسفير أشرف غربال للحصول على موافقته
على اصدار طبعة ثانية من « تكوين مصر » . وقد رحب
بذلك مشكورا .

اننى أدعو القارئ الكريم للاستمتاع بهذه الرؤية
التاريخية لتاريخ مصر عبر العصور ، لمؤرخ عظيم ، قد
نتفق معه أو نختلف ، ولكننا نكن له الاجلال والاحترام
باعتباره أستاذ الجيل من الأساتذة ، على رأسهم المرحوم
الدكتور أحمد عزت عبد الكريم .

والله الموفق .

رئيس التحرير

أ . د . عبد العظيم رمضان

مصر هبة المصريين

هذا الحديث بداية سلسلة من الأحاديث ترمى الى عرض متصل لتاريخ مصر خلال العصور الماضية ، وموضوعها • تكوين مصر • وسوف نسلك الى ذلك طريقين :

وسنحاول اول الأمر أن نعالج غواحي مختارة ، وموضوعات منتخبة ، مثال ذلك : التفاعل فى تاريخ مصر بين مبدأى الاستمرار والتغير • وعوامل التماسك الاجتماعى ، ومكان الفرد فى المجتمع ، وأوجه التباين بين المدينة والريف •

ثم نعود فنعالج الموضوع بطريقة أخرى ، أى من

ناحية دراسة اتصالات مصر بالمجتمعات الأخرى الكبيرة ،
وكيف أثرت مصر فى عالم العهد القديم ، وفى الحضارة
الهيلينية والمسيحية ثم الاسلام فالعالم الغربى ، وكيف
تأثرت بكل هؤلاء .

وقد اتخذت عنوانا لحديثى الأول : « مصر هبة
المصريين » . وليس مرد ذلك إلى معارضة القول المشهور
لأبى التاريخ - هيرودوت - حبا فى المعارضة ، ولكن
لتوكيد الناحية أو الزاوية التى سوف نعالج منها
الموضوع . ذلك أننى أريد أن أؤكد عمليات الخلق
والنمو والمحافظة التى نوجزها فى العنوان : « تكوين
مصر » . كما أريد أن أؤكد أن هذا « التكوين » كان من
صنيع جماعة من الناس ، - المصريين - ومن ثم كان
العنوان : « مصر هبة المصريين » . وأخيرا أريد أن أؤكد
مافى هذا النتاج ، نتاج هذا الخلق - مصر - من صفات
الشخصية والرسوخ والانفراد بالذات . هذا النتاج
الذى أثر بدوره فى تكوين المصريين . ولن تكون مصر
التي نعيش بها مصر فى عصر معين ، بل خلال العصور
كلها ، وهذا على الرغم من أننى أعرف أنه ليس فى
مقدور الرجل منا أن يحيط بالأدوات والدراسات
كافة ، اللازمة لكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة :

ألا وهي العصر الفرعوني ثم اليوناني والروماني
فالاسلامي ثم العصر الحديث ، دع عنك الاحاطة بها
جميعا - بيد أن الاختصاصي والقارىء غير الاختصاصي
كلاهما يجد متعة ذهنية ومغتما في آن واحد لو حاد بين
الفينة والفينة عن طريق التخصص ، الطريق الضيق ،
واضعا نصب عينيه أن هناك « مصر » دائما ، وأنها
تسمو فوق هامات الحقب والعصور .

ولكن هل هنالك حقا شيء كهذا ؟ هل هناك ما يبرر
استخدامنا مدلولات : « مصر » و « الصين » وما إليها ؟
وهل استخدام تلك المدلولات لكى تمثل شيئا ماديا أمر
مشروع ؟ أم أن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تسمية ،
أم يكون من نسج الخيال ، أو الوهم ؟

ليس هنالك شيء من ذلك . ان مصر أرض شكلتها
الطبيعة . وشكلها الانسان شيئا له ذاتيته وأهميته ،
وهى وطن مجتمع من بنى الانسان تربط بعضهم ببعض
روابط مادية وأدبية ، انها وطن مجتمع مغاير لمجتمعات
بشرية أخرى .

ولنتناول الآن « المصريين » الذين قلت ان مصر كانت
هبتهم .

لن ألقى. بالا-للمسائل المتعلقة بأصلهم أو جتسهم ،
ذلك لأنى. أعنى بالمصرى كل رجل يصف نفسه بهذا
الوصف ، ولا يحس بشيء ما يربطه بشعب آخر .
ولا يعرف وطنه له غير هذا الوطن مهما كان أسلافه
غريباء عن مصر فى واقع الأمر .

ومما هو جدير بالذكر أنه مهما تعددت الأصول
فقد كان هناك طابع « مصرى » تشكل فى هذه البيئة
المصرية ، ولست أعنى بالطابع السمات الجسمانية ، بل
أعنى موقفا معينا من الحياة .

فلا يعنينى إذن أن أبحث فى بقعة ما من بقاع مصر
عمن يسمونهم ذرارى قداماء المصريين . وبعض من
يعنيهم هذا البحث يظنون أنهم يعثرون عليهم فى ريف
مصر - على افتراض أن الريف كان أقل نواحي المجتمع
المصرى تأثرا بالتغير والتبدل، أو لأن الريف كان الأرض
المنعزلة التى يلجأ اليها القوم ابتغاء النجاة من الغزاة
الأجانب . ولكن الحقيقة هى أن الريف كان على عكس
ذلك تماما ، فهو البقعة التى استوطن فيها مرتزقة
المحاربين من الافريق، وكذلك رجال القبائل من العرب،
وبدو الصحراء ، وأن الريف - كما سأشير اليه فيما

بعد - كان على الدوام المفترس للبشرية المصرية ،
المفترس النهم الذي لا يشبع .

وآخرون ممن يعنيهم هذا البحث يظنون أنهم
يجدون بغيتهم في طائفة « أقباط » مصر . واحتمال
وجودهم في هؤلاء ، مثل احتمال وجودهم في غيرهم .
وليكن المصريون الأوائل من يكونون ، وليكن تأثير
سلالتهم بمن وفد على بلادهم ، واختلط بهم كثيرا أو
قليلا ، فبالذي يعنينا الآن أن نبين أن « مصر هبة
المصريين » .

وانى لأدرك تمام الادراك - وهل يمكن أن يكون
الأمر غير ذلك - أن النيل منبع حياتنا ، وأن مصر مأوى
الإراضى الواقعة على ضفتى النهر ، وأن ليس لها من
حدود إلا المدى الذى تصل اليه مياه النهر .

ومع ذلك فان المصريين هم الذين خلقوا مصر .
تأمل النيل مجتازا آلاف الأميال من خط الاستواء الى
البحر الابيض ، هل تجد على طول مجراه الا مضرا
واحدا ؟ ان هبات النيل كهبات الطبيعة سواء بسواء ،
طائشة عمياء ، اذا ما تركت دون ضبط ، فانها تدمر
كل شيء ، وتخلف مستنقعات الملازيا الوبيلة .

والانسان وحده هو الذى يستطيع أن يجعل من هذه
الهيئة نعمة لا نقمة . وقد كان ذلك ما عمله الانسان
فى مصر ، فمصر هيئة المصريين .

كيف حدث ذلك ؟ ان الأستاذ « آرنولد توينبى »
يتحدث عن هذا فى معرض كلامه بما سماه « التحدى
والاستجابة » ، وهذا موجز كلامه : ان هؤلاء المصريين
الأوائل - شأنهم فى ذلك شأن بعض الشعوب الأخرى -
واجهوا بعد نهاية عصر الجليد التحول الطبيعى العميق
فى مناخ جزء من أفريقية وآسيا نحو الجفاف .

هذا هو التحدى ، فماذا كانت الاستجابة ؟ من
الأقوام الذين واجهوا التحول من لم ينتقل من مكانه ،
ولم يغير من طرائق معيشته ، فلقى جزاء اخفاقه فى
مواجهة تحدى الجفاف - الإبادة والزوال . ومنهم من
تجنب ترك الوطن ولكنه استبدل طريقة معيشته
بأخرى ، وتحولوا من صيادين الى رعاة رحل ، عرفتهم
المراعى الافراسية . ومن هؤلاء من رحل نحو الشمال ،
وكان لزاما عليهم أن يواجهوا تحدى برد الشمال
الموسمى ، ومن الأقوام من انتقل صوب الجنوب نحو
المنطقة الاستوائية المطيرة . وهناك أوهن قواهم جو

تلك المنطقة المطير الجارى على وتيرة واحدة ، وأخيرا
منهم أقوام استجابوا لتحدى الجفاف بتغيير موطنهم
وتغيير طرائق معيشتهم معا .

وكان هذا الفعل المزدوج ، الذى قل أن نجد له
مثيلا ، هو العمل الارادى الذى خلق مصر كما عرفها
التاريخ .

هبط أولئك الرواد الأبطال ، بدافع الجرأة أو
اليأس ، الى مستنقعات قاع الوادى ، وأخضعوا طيش
الطبيعة لارادتهم ، وحولوا المستنقعات الى حقول تجرى
فيها القنوات والجسور . وهكذا استخلصت أرض مصر
من الأجمة التى خلقتها الطبيعة ، وبدأ المجتمع المصرى
قصة مغامراته الخالدة لتستقيم له أمور دنياه وأمر
أخراه .

ويظن العلماء أن المستنقعات التى تحكم فيها
المصريون الأوائل هذا التحكم الحاسم كانت لا تختلف
كثيرا عما هو قائم الآن فى منطقة السدود فى السودان
بل ان العلماء يظنون أن أسلاف القوم الذين يعيشون
الآن فى تلك المنطقة كانوا يقطنون فيما مضى ما يعرف
الآن بصحراء ليبيا ، جنبا الى جنب مع مبدعى الحضارة

المصرية ، عندما استجاب هؤلاء لداعى الجفاف .
واختاروا لأنفسهم أن يتخذوا خطة بالغة نهائية
الخطورة . والظاهر أن المصريين حين فعلوا ذلك أثار
جيران لهم اليسرى وولوا وجوههم نحو الجنوب ، نحو
بيئة طبيعية تتفق والبيئة التى ألفوها ، والتى أصابها
من التحول ما ألزمهم أما بمغادرتها وأما بتغيير أساليب
حياتهم . وقد اختاروا مغادرة الوطن الى موطن جديد ،
يستطيعون فيه ممارسة شئون معاشهم على الوجه الذى
ألفوه ، وتم لهم هذا فى المنطقة الحارة من السودان فى
دائرة الأمطار الاستوائية . ولا يزال أحفادهم من
الدنكة والشلوك وغيرهم يعيشون فيها حتى يومنا هذا ،
كما كان يعيش آباؤهم الأولون . وقد أوضح الأستاذ
«تشيلد» ما بين هؤلاء القوم المعاصرين وقدماء المصريين
من شبه فى القوام والسمت ، ونسب أجزاء الرأس ،
واللغة ، والملبس . ويضيف الى ذلك قوله : ويبدو أن
النمو الاجتماعى عند القبائل التى تقطن أعالي النيل
وقف عند موضع تمكن المصريون من اجتيازه قبل بدء
العصور التاريخية . ولدينا الآن فى أعالي النيل
« متحف حى » يكمل أناسه آثار ما قبل التاريخ فى
مجموعاتنا الأثرية فيحييها .

ولكن لا يزال علينا أن نسأل : لم اختلف مسلك
المصريين الأوائل عن مسلك اخوانهم أسلاف الدنكة
والشلوك ؟ وفى هذا المقام يتحدث الأستاذ « توينبى »
عن نصيب « القلة الخالقة » فى نشأة المدنية • ويبدو
أننا لابد أن ننتهى الى أن نعزو ما حدث الى اقتران
ظرفين : أحدهما : كون البيئة التى تحدث الانسان لم
تكن هيئة لينة ، كما لم تكن قاسية مثبطة بل كانت بين
بين • والآخر : اتفاق وجود الرجل أو الرجال الموهوبين
الذين يقودون شعبهم فى الساعة الملائمة الى مغامرة
كبرى من مغامرات الخلق والتكوين •

وليكن التفسير ما يكون ، فان مصر ، مصر التى
تشكلت على هذا النحو المفاجئ المثير ، قد سيطرت هى
أيضا على مصائر أبنائها ، واقتضت ثمن بقائها على
الشكل الذى صنعوه •
هذا هو موضوعنا •

الاستمرار والتغيير فى تاريخ مصر

« ان التفاعل الحادث بين المبدأين المتقابلين - مبدأ الاستمرار ومبدأ التغيير - يكون مادة التاريخ . فما يبدو فى التاريخ مستمرا لا يخلوا أبدا من تغيير خفى دقيق . وما من انقلاب مهما كان فجائيا ومهما كان عنيفا استطاع أن يقطع تماما صلة الاستمرار بين الماضى والحاضر » هذه فقرة مقتبسة من بحث للأستاذ « كار » فى تقدير صلة الثورة الروسية بالتاريخ الروسى .

وانا لنجد تأييدا لما ذهب اليه الأستاذ « كار » فى بحثه هذا اذا ما ألقينا نظرة فاحصة سريعة على تفاعل هذين المبدأين فى تاريخ مصر .

والتغيرات التي سنعرض لها في حديثنا الحالي كانت في أغلب الأمر اجتماعية وثقافية ، وبما أننا سندرسها في مجتمع معين - هو مصر - فلسنا في حاجة الى أن ندخل في نطاق البحث ما تصوره بعض فلاسفة العصور القديمة والوسطى والحديثة من أطوار كبرى مرت فيها البشرية ، من قبيل تصوير « هسيود » لعصور الذهب والفضة والحديد ، أو ذاك النسق الذي رسمه « أوجست كونت » لتقدم الجنس البشرى من طور الى آخر . أو أطوار الكون والفساد المشهورة التي تخيلها المفكرون اليونان . تلك التصورات والتخيلات لها قيمتها من حيث كونها وسائل لترتيب الحقائق والظواهر في شكل منظم ، ولكنها لا تعين كثيرا على ايضاح المشكلات المتعلقة بمجتمع معين .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لن أتخذ من الاستمرار والتحول مرادفا لارتقاء المدنية أو السلطان وتدهورهما ، أو كما عبر « شينجلر » بقوله : « مولد المدنية ثم نموها ، فنضوجها ، وأخيرا انحلالها فزوالها » . وقد سما الأستاذ « توينبى » بدراسته التغير ومظاهره الى أرفع مراتب المجاهدة الروحية . ولكنه لا يقبل أن يكون ما سماه « دول العصبية المحلية » مجالات صالحة

لعمل المؤرخ . ولكن هل نستطيع حقا أن نغفلها على هذا النحو السهل ؟ وبعد ، هل يوجد ماضٍ يعتد به شعب من الشعوب سوى ماضيه ، ماضى وطنه ، ماضى عصبية المحلية مهما كان شأنه ضئيلا بالنسبة الى ماضى الانسانية ، ومهما كان أفقه محدودا ضيقا ؟

أما عن منهجى فلا أرى بأسا فى ألا أستخدم مفتاحا واحدا ألج به عالم التغير فى التساريخ ، واليك بعض ما قالوه فى هذا :

من ذلك ما لاحظ الأستاذ « سبروت » حديثا عن اتجاه بعض المفكرين الى اعتبار التقدم الانسانى ظواهر حتمية لعملية باطنة ، عملية تتخذ طريقها وتسير فيه مستقلة عما يريده الناس ولو أنها تتأثر به . هذا بينما يربط الأستاذ « باريتو » ما بين التغير الاجتماعى والتغير فى نوع الصفوة التى تقود الجماعة . أما النظرية الماركسية فتبرز التغير فى أساليب الانتاج وطرائقه ، والصراع بين الطبقات ، وما الى ذلك .

ومن الخير أن نعرف ماذهب اليه أولئك الاجتماعيون وغيرهم ، على أن تنهج منهجا آخر لفهم التفاعل بين الاستمرار والتغير فى تاريخ مصر ، نهجا يصح أن أسميه « ملازمة الوقائع » ، وهو يقوم على السعى الى

عزل أو فصل النسوة الأساسية للثقافة المصرية ، ثم ملاحظة تأثير تلك النسوة بما طرأ من مؤثرات فى الحياة المصرية ، ترتبت على وصل مصر طوعا أو كرها بالمدن والجماعات المتعاقبة غير المصرية • ودرجة هذا التأثير هى مقياس التفاعل بين الاستمرار والتغير •

ومن فوائد منهجى هذا أنه يتيح لنا استقامة النظر فى أمر الثقافة المصرية ، فقد كان القوم ينزعون الى النظر اليها ، كما لو كانت شيئا انبعث كامل النمو انبعث « مينرفا » من « رأس زفس » • ولهذا النظر ما يبرره ، فان الاغريق عندما اتصلوا اول الأمر بتلك الثقافة كانت قد شاخت ، واشتعل رأسها شيبا ، وفاض حكمة • فكيف يمكنهم أن يتصوروها أيام شبابها ؟ وبدأت تلك الثقافة لبنى اسرائيل واثقة بنفسها اكمل وثوق ، لا يتطرق الى نظرتها لنفسها شىء من التشكك أو الخيرة ، ولما جاء علماء الآثار أو الحفارون - بمعنى أدق - الى مصر ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان همهم العثور على الآثار المكتملة الصنع - آثار الخلق الفنى - وقد عثروا عليها بالفعل • وأكد لهم ما عثروا عليه الصورة التى خلقتها كتابات الاغريق وبنى اسرائيل •

طاف « مارييت » بالمسيو « رينان » في مناظق
اكتشافاته في « سقارة » و « طيبة » ، وعبر لنا
« المسيو رينان » عما تركته في نفسه آثار الحضارة
المصرية بقوله : « ان مصر هي صين أخرى ولدت مكتملة
النمو وكأنما ولدت شيخا هرما - وانها كانت تتسم
بسمات من الشيخوخة والطفولة معا ، انعكستا على
صفحة تاريخها وفي آثارها » .

ويضيف الى ذلك قوله : « انه لمن الطبيعي ، ومن
الملائم أيضا ، ألا يبقى الانسان شابا طول عمره ، ولكن
ليس من الطبيعي ولا من الملائم ألا يمر الانسان بمرحلة
الشباب » .

وبعد ، فماذا تدل عليه آثار مصر ؟ تدل على أن
لا ابتكار ولا شعراء ، ولا مؤرخين ، ولا ثورات ،
ولا « سقراط » يتلقى عنه « اكسينوفون » ويتخذه
« أفلاطون » مثلا أعلى ، ويسخر منه « أرسطوفان » .



أبدت تلك الملاحظات عندما كانت مصر تعد نفسها
للارتباط بعجلة الأداة الأوروبية ، وهي - كما نعرف -
عجلة سريعة الدوران - وربما كان للتباين الشديد بين

سكون الشرق وحركة الغرب ما يزيد الشرق سكونا ،
والغرب حركة فى عين الناظر .

وهكذا يبدو الفلاح المصرى فى القرن التاسع عشر ،
وكأنما يعيش كما كان يعيش أجداده فى عصر الأهرام ،
وتبدو كذلك أسس الرخاء والحكومة الصالحة واحدة
فى الماضى ، وفى الحاضر ، وترددت على الأفواه عبارات
التوراة ، فالوزير الماهر هو « يوسف » آخر ، والامعان
فى الاستئثار بما فى أيدي المصريين لم يفتر منذ أيام
« فرعون » .

ثم بدأ طور جديد من أطوار البحث العلمى يظهر
الى الوجود عالما تختلف حقائقه كل الاختلاف عما كان
مألوفاً معروفاً ، فأظهر لنا الكشف عن عصر ما قبل
التاريخ ، وعصر ما قبل الأسر المالكية - نشأة الحضارة
المصرية وشبابها . كما كشفت لنا النقوش الدينية عن
شقاق كامن فى جسم المجتمع وفى نفس الفرد ، وكان
هذا عندما نظروا فى تلك الكتابات بروح العطف
وبصيرة الانصاف . وانا لنعرف الآن كيف طرأت على
المجتمع الذى بناه قادة عصر الأهرام عوامل من الضغط ،
وأن هذه العوامل فعلت ما فعلت مصحوبة بمشاهد من

العنف ، وكيف قام قادة آخرون ببناء صرح المجتمع المتداعى على أسس جديدة ، وبذا نصل الى مجتمع الدولة المتوسطة : ثم أدى قدوم « الهكستوس » وطردهم فيما بعد الى طور آخر من أطوار التاريخ ، فهو عصر الامبراطورية .

وظاهر الأمر أن الامبراطورية رأيت الصدى الملحوظ في بناء المجتمع ، وحاولت أن تخلق جوا من الاطمئنان والثقة . ولكن هيهات ؟ . فلا يستطيع انسان شاهد ، مثلا ، المناظر المنقوشة على جدران « قبر سیتی » أن يعتقد أن نفس الانسان في ذاك العصر قد نعمت حقا بالهدوء والطمأنينة . ولو كان الجو حقا من الثقة واليقين بالدرجة التي أحبوا أن يتوهموها لما كانت ثورة « اخناتون » الدينية ، وفيها ما فيها من معانى المجاهدة الروحية والتجديد في كل شيء .

وعندما نصل الى الأسرات الملكية الأخيرة نبدا فنلاحظ وجود نواة متحجرة داخل اطار التاريخ، ولعلنا نطلع على سر تحجرها اذا ميزنا بين عاملين أحدهما :

أحدهما : نظام اجتماعى ثابت يقوم على ضبط النيل .

والآخر : انسانية نمت فى جو مصرى خالص .
وفى هذه الأثناء كان العالم خارج النظام المصرى
يتبدل على أيدي شعوب أخرى .

فماذا يكون حال النواة المصرية بازاء المؤثرات
المادية والأدبية الجديدة ؟

وقبل أن نحاول الاجابة على هذا السؤال يجب أن
نلاحظ حقيقة طريفة ، وهى أن ما لدينا من معلومات
عن حال مصر وموقف مصر انما مصدرها جانب واحد،
جانب أجنبى ، فان الاغريق واليهود ، ومن اليهم من
الغرباء ، هم الذين رووا عن المصريين ما رووا ، وهذا
نى رأى حقيقة يجدر بنا أن نضعها موضع الاعتبار ،
وكانت الصورة التى رسموها صورة شعب متجهم عبوس
عديد محافظ ، يكره كل ما هو غريب عنه .

ولكن أكان هؤلاء الاغريق ، وهؤلاء اليهود حقا أقل
انطواء على أنفسهم ؟

لقد نظر الأقدمون جميعا الى كل شىء ، بعين العصبية
القومية ، بل كان لكل قوم ربهم ، الذى لا هم له الا

رعائتهم وتدليلهم • وماذا كان فى استطاعة المصريين
أن يفعلوه مع شعب الله المصطفى ! •

ترى كم من الناس مر فى خاطره ذلك الحلم الذى
داعب خيال « الاسكندر الأكبر » وحدا به الى رؤيا عالم
روحه اللوئام ، أو الانسانية المنبثقة من أخوة بنى
الانسان ، وعلى كل حال فان المصريين تعلقوا بالاسكندر
وضموه الى أنفسهم ، بيد ان خلفاء « الاسكندر » فى مصر
لم يثرهم شىء من ذلك الحلم الحميل ، ولم يفعلوا شيئاً
لكى تتفاعل الروح المصرية بالروح الهيلينية ، بل
الأصح أنهم كرهوا هذا وعملوا ضده •

فلا نعجب اذن اذا وجدنا عهد البطالة عهد تهجين .
وعهد استغلال نافذ شامل ، وعهد كراهية ، وحرب بين
الأجناس • ونصل على هذا النحو الى حقبة من التاريخ ،
لا تفيد الحكومة فيها الا معنى واحدا هو كونها المالك
الكبير • •

وخلف الرومان البطالة ، وساروا بمنهج سابقهم
الى أبعد مدى يستطيعونه ، فلا عجب أن صار المصريون
أكثر تبهما ، وأكثر عنادا وصلابة •

وجاءت المسيحية فخلصت الروح المصرية مما شايها

مَنْ قَتَام وعبوس وصلابة ، بيد أن اعتناق المصريين
المسيحية ، ثم الاسلام بعد ذلك ، أحدث في عالم مصر
منشق على نفسه ، ولقد تحرر الانسان حقا بفضل
المسيحية والاسلام التحرر الحقيقي من رق الخرافة
والعبودية لغير الخالق ، وتحرر الشعب من رق المقدونيين
والرومان . ومع ذلك فان الفرد المتحرر لم ينل الحرية
التي تتيح له فرص اكتمال شخصيته ، فقد بقي التمييز
والتفرقة ما بين الحاكم والمحكوم قائما ، وحال ذلك
دون تمتع الفرد بنصيبه الكامل من الجزاء والمسئولية .
ولكن التحرر الذي أتى بفضل الديانتين الجديدتين
- المسيحية والاسلام - كان تحررا لا شك فيه ولا ريب .
فلنتأمل مثلا مصر المسيحية تخلق فنا جديدا ، وتقيم
كنيسة قومية ، وتصنع لنفسها أداة لفوية جديدة .
ولنتأمل حياتها الدينية وتنوعها ، ولكنها مع ذلك شقيت
بالنزاع مع « بيزنطة » وقد كان هذا النزاع مبعث كثير
من العداوة والجذب الفكرى ، والدمار الذى حل
بالعصور البيزنطية المتأخرة .

وبدخول القوم في الاسلام اتسع الأفق المصرى ،
وامتد الى محيط دار الاسلام . وما ثقافة مصر فى عهد
الاسلام الا الثقافة الاسلامية معدلة ، لتلائم ظروف

مصر ، وهنا حدث فعلا تكافؤ بين الاستمرار وبين
التغير . ولم تشهد رجحان كفة مبدأ التغير الا عند
استهلاك القرن التاسع عشر وبدء الاتصال بالغرب .
وبعد ، فماذا نقول بعد أن لازمنا نواة الحضارة
المصرية خلال عصور التطور والتبدل المتعاقبة . نقول:
اننا نستطيع أن نقدر مدى تأثير عقل المصري و ارادته ؟
ولكن ، ما الحكم على رفيق العفل والارادة المستقر في
أعماق النفس ؟

سؤال ليس له من مجيب .

الحكومة والمجتمع في مصر

قد عرف المجتمع بأنه : « نسيج من العلاقات الانسانية المتداخلة أو المتفاعلة بعضها مع بعضها الآخر » . وعرفت الحكومة بأنها : « ممارسة السلطة من جانب صاحب السلطان ، ووكلائه أو مندوبيه ، لتنظيم تلك العلاقات أو التفاعلات في مجتمع ما » . وهناك ارتباط وثيق بين أوضاع الحكم وأغراضه في مجتمع معين ، وبين ما يعتنقه أعضاؤه من آراء ومعتقدات عن أصل مجتمعهم . فإذا اعتقد قوم ، مثلاً ، أن مجتمعهم هو من صنع الآلهة ، عندئذ يكون للآلهة أو سلالة الآلهة السلطان الأعلى عليهم ، ويكون زمام الحكم في أيديهم . تلك كانت عقيدة قدماء المصريين عن أصل مجتمعهم .

وهكذا كان السلطان والحكم فى أيدى الملوك الآلهة «
وسادت فى مصر بعد اعتناق أهلها المسيحية مذاهب
أخرى ، وتغيرت تبعاً لذلك مدلولات كلمتى المجتمع
والحكومة .

ومنذ سنوات وضع الأستاذ « ديبواريشار » (من
أساتذة كلية الحقوق بالجامعة المصرية) بحثاً ممتازاً
مثيراً للتأمل ، فى موضوع : « تطور الحكم وأصواته فى
مصر ، منذ أقدم عصورها » ونشره له المعهد المصرى
وقد فرق الأستاذ « ديبواريشار » بين أطوار ثلاثة :

أولها : ظهور حكومة الملوك الآلهة ، سواء الفراعنة
الأصليون أو خلفاؤهم البطالة المقدونيون والقيصرية
الرومان .

وثانيها : طور الحكومة ، يسودها قانون مستمد من
شريعة سماوية ، مسيحية كانت أو اسلامية .

وينتهى هذا الطور فى عصر الثورة الفرنسية .

أما الطور الثالث : أو الحالى فهو : طور الحكم على
قواعد من وضع العقل البشرى .

وهذا التمييز مفيد ، وان كان مما يحتمل الجدل أن

مجتمعا ما أو حكما ما يخضع خضوعا خالصا للعقل وحده..، ويكون كل تصرف فيه مما يمكن وصفه بأنه تصرف معقول ، فلنتبع بعد هذا التقديم أطوار المجتمع والحكومة على وجه الاجمال - ولنحاول أن نحذو حذو « أرسطاطاليس » فى منهجه التحليلى التسلسلى . ولعلكم تذكرون كيف بدأ بالمنزل ، وانتقل منه الى القرية ثم المدينة .

والمدينة تتوج التسلسل ، وفيها وحدها يتاح للانسان آخر مجال لاكتمال طبيعته . فهى « طبيعية » بالنسبة اليه ، وهو مدنى بالطبع . وبينما المدينة وليدة مقتضيات الحياة ، فان بقاها مما تقتضيه الحياة الطبية . هذا ، واذا أوغلنا فى أقدم ما تمليه الحيلة من عصورنا التاريخية وراء تحديد نقطة البدء فى حياتنا المدنية وجدناها فى مواطن الجماعات المصرية الأولى التى أصبحت فيما بعد « كور » مصر فى الاصطلاح اليونانى ثم العربى المصرى ، أو مديرياتها - الى حد ما - فى اصطلاحنا نحن المعاصرين . ويجب علينا أن نتذكر دائما أن كل واحدة منها كانت موطن جماعة من الناس تربطهم بعضهم الى بعض صلات نسب ، ومصالح ، وأنها بدأت واستمرت متميزة بعضها عن

بعض ، عقيدة وموقعا ومصالح . وان مصر كانت
ثمرة اتحادها فغلبت عليها بعد الاتحاد صفة كونها
أقساما إدارية في مملكة .

وليس من اليسير علينا أن نقدر الآن أثر تحدر
جماعات الكور الأولين من سلالة بشرية واحدة في
التقريب فيما بينها . والثابت : أنها تعرضت من حيث
تكوينها الجنسى لمؤثرات مختلفة . فالمواطن التي تتاخم
البادية - مثلا - أو التي تقع على خطوط المواصلات
الكبرى أو قرب قلب أفريقية زاد اختلاط أهلها -
بعناصر بدوية أو أفريقية أو آسيوية أو غير ذلك - عن
غيرها ، وهكذا . وفضلا عن ذلك كان لأنواع البيئات
المصرية أثره في إيجاد فروق كبيرة بين الجماعات ،
فالدلتا غير الصعيد ، وما جاور البحيرات أو البحر أو
الصحراء له أثره العميق ، بالإضافة إلى اختلاف عناصر
المناخ ، ومزايا الموقع الجغرافي الحربية والتجارية وم
إلى ذلك .

وبهما كان الأصل أو المنشأ أو الظروف فإن نصيب
« الكور » في تكوين المجتمع المصرى أمر بالغ غاية
الأهمية ، بل إن اتحاد مصر لم يبطل تأثيرها العظيم .

وأية ذلك. التأثير أن انتقال الحكم من أسرة أو من مجموعة من الأسرات الى مجموعة أخرى ان هو الا توكيد متصل لاحتفاظ نواحي المملكة بعصبية محلية قوية تستند الى أساس من التقاليد والواقع . وأن هذه العصبية المحلية تعمل اذا ما واثتها الظروف على أن يمتد نشاطها الى المملكة بأسرها .

وقد تم تكوين الوحدة المصرية أو المجتمع المصرى عن طريق الفتح ، والمشهور أن الأمر استقر على تكوين مملكتين وانتهى باتحاد المملكتين أو الأرضين .

وكلمة « فتح » قد نسيء فهمها . فالغالب أن الفتح لم يعد أن يكون حمل جماعة من الجماعات على أن تقبل ارتباطا ظهرت مزاياه لها ولغيرها . ولا شك فى أنه بعد أن اتخذت الأقلية الخالقة « التى أشرت اليها فى الحلقة الأولى تلك الخطوة الحاسمة - خطوة الاستجابة لتحدى الجفاف . بمفادرة المرتفعات الآخذة فى الجفاف والجذب ، والاستقرار فى مستنقعات الأحراش فى أسفل الوادى ، وتحويل تلك المستنقعات الى النسق الذى نألفه ، من حقول مزروعة تشقها مجارى الرى والصرف ، لم يكن أمامها مناص من وضع النهر كله تحت اشراف

موحد مركز . ويصح جدا أن تكون القوة هي التي استخدمت لبلوغ هذا ، ولكن القوة كانت بالنسبة الى عملية التوحيد والاتحاد كلها أقل الوسائل المستخدمة أهمية .

وقد آمن المصريون بأن تكوين مصر على النحو الذي به تكونت ، وتوحيدها على النحو الذي به توحدت ، لأعظم من أن يكونا أثرا من آثار عبقرية فرد أو طائفة ، بل هما أجل قدرا من أن يتما الا على أيدي الآلهة . فالآلهة هي التي عملت بالفعل ولم تكتف - كما يصح أن نتصور - بالهام البشر أو هدايتهم . وما الملوك البشريون الا سلالتهم .

ومما ينبغي ألا نغفل عنه ، أن وحدة مصر اتخذت مظهر التركيب أو المزاوجة ، فالتاج تركيب من تاجين . ومن الآلهة تتركب تراكيب ثنائية أو ثلاثية أو تساعية ، وما الى ذلك . وهذا كله له دلالة ، وله أيضا آفته . فان ما تركيب يجوز أن يتفرق ويتحلل ، فكان لابد من خلق أدوات تصون المجتمع . ومن أهمها انشاء الخدمات العامة التي تدعو الى العجب والاعجاب .

واختراع الكتابة ، ومحاولة بلوغ الوحدانية على

نحو يجمع - فى مهارة وحذق ، وفى سذاجة وطيبة
أيضا - بين الولاء المحلى والولاء القومى الدينين .

وقد قارن « المسيو رينان » بأسلوب لا يخلو من
الفكاهة ، حكومة مصر الفرعونية بحكم تمارسه أكاديمية
العلوم السياسية والخلقية . والأصح أن نقول : انها
كانت حكومة الفنين . والفنيون يكونون اذن أول
طوائف مجتمعنا المصرى .

ولكن يجب أن نلاحظ أن هؤلاء الفنين لم يقتصروا
على ممارسة فنون المادة ، بل مارسوا أيضا فنون الروح
- ان صح التعبير - وهم جميعا كهنة . فلم يكن الكاهن
رجل دين فقط بالمعنى الذى نعرفه ، بل كان كل ذى شأن
كاهنا من نوع ما : من الملك الى من هو أدنى . ولذا فان
لى أن أقسم المجتمع المصرى بين قلة من الحكام الكهنة
الفنين ، ورعية تعمل فى الانتاج ، كما أن لى أن أسمى
حكم مصر بحكم الملك الاله ، يمارس حكمه بواسطة
فنية .

ومما لا شك فيه أنه كان من الطبيعى أن يحاول
أولئك الفنيون أن يتألهوا وأن يؤبدوا نفوذهم فى

ذريتهم ، وأن يوصدوا الأبواب دون الدخلاء . الا أن
ثمة عاملين حالا دون ذلك .

أولها : عامل الاختيار والفناء الطبيعيين ، وهو
يحول دائما دون ايجاد الأبواب في وجه الدخلاء من
الخارج .

والعامل الثاني : هو أن « فرعون » كان يعمل دائما
على أن يبقى هو وحده « منبع التشريعات كلها ، ومنبع
الهبات كلها » . وعلى هذا الأساس كان جد حريصا على
أن يرفع حديثي النعمة - كما نقول اليوم - كلما أمكن
له ذلك .

ومما هو جدير بالنظر أن هؤلاء الفنيين عملوا على
أن لا يسمحوا لأنفسهم بحرية استخدام مواهبهم، طبيعية
كانت أو مكتسبة ، للتجديد أو الابتكار المطلق الا في
فترات الثورات . كما لم يكن لهم أن يخرجوا عن
ممارسة الوظائف المخصصة لهم وفقا للقواعد
« السائدة » .

هذا شأن القلة ، أما الرعية من المنتجين ، فخير
ما نفعل لمعرفة شأنهم ، هو أن نتصورهم جماعات منظمة

من الفلاحين والصناع يعملون في ضياع التاج ، أو
المعايد ما الى ذلك .

وقد عنيبت الحكومة أدق عناية بحاجاتهم الروحية
فنظمت شئون العبادات العامة ، ووضعت القوانين
الخلقية المستفيضة لكفالة حسن السلوك والسيرة
القويم . ولم يترك لهم في الواقع الا متاع الحياة
العائلية ، وكانوا في فترات اليسر والرخاء راضين
قانعين ، وأظن أن هذا كان كل ما هنالك .

ولقد كان في وسع مجتمع مشيد على هذا النحو أن
يشهد أيام عظمة ومجد ورخاء ، وأن يخلف ميراثا من
جليل الأعمال ، ولكنه كان في معظم الأحيان ، كما لو
ذاق الموت .

ولما اعتلى البطالة والقياسرة الرومان عرش
« فرعون » تفككت عرى المجتمع المصري كما وصفناه ،
فالمجتمع في الظاهر هو هو ، وفي الباطن شيء آخر .
فقد استقر الاغراب من الأغريق واليهود في القرى
والمداين هنا وهناك ، ومارسوا شئون تجارة السلع
وتجارة الفكر ، ومبادلتها مع البلدان الأخرى وفقا
لمبادئ غير مصرية . واستنزفت دماء الأهلين الى آخر
قطرة - وهذا كله بالإضافة الى عوامل أخرى جعل من

المحال استمرار النظام القديم ، وسلبت السلطة من يد الملك الآله ، أو من يد الآله القيصر الغائب عن البلاد ، ونشأ عهد اقطاع ، وتكونت الضياع الكبيرة ، وقويت نقابات أرباب الحرف ، وعلا شأنها فى المدن ، ولم يبق فى الأسر التليدة الا أهل الريف . وهكذا ظل الريف يأكل ويهضم الغذاء الانسانى الذى يقدم اليه ، ولا يشبع نهمة .

وجاءت المسيحية بشيرة بالخلاص ، بشيرة — على الأقل — برفع نير اليأس ، ودان لها الحاكمون البيزنطيون ، والمحكومون المصريون على السواء ، ولكن الفرج لم يأت بعد ، فالحكام أجانب ، وأجانب لا يستغلون الموارد فحسب ، ولكن يعملون أيضا على فرض مذهب دينى معين ، ونظام كنسى معين على الرعية . وانتصر المصريون فاحتفظوا بشخصيتهم ، وشادوا بأنفسهم — ولأنفسهم فقط — صروح الفن واللغة والآداب والكنيسة . ولكن مجتمعهم انتقل من النظام الموحد الذى عرفه آباؤهم الى مجتمع يقوم على الطوائف والهيئات : سكان القرى ، وسكان المدن والطبقة الوسطى ، والقساوسة والرهبان ، تربطهم جميعا رابطة من الدين والتقاليد .

وفى سطوع نور الاسلام نصل الى العصر الثانى من
عصرى الحكم ، الذى يسوده قانون مستمد من شريعة
سماوية . وقد ظل المجتمع قائما على تنوع الطوائف
والهيئات كما كان من قبل ، الا أن ما بين تلك الطوائف
والهيئات من فوارق وفواصل أوهنه وأضعفه احساس
قوى بالانتماء الى « الأمة » ، الأمة الواحدة ، وهو
احساس سرى حقا فى كل فرد وفى كل جماعة . أما فى
دائرة الحكم فقد كانت مصر الاسلامية - شأنها فى ذلك
شأن غيرها من البلاد الاسلامية - تعترف بالحقيقة
القائمة على التمييز بين الحكومة الشرعية حقا وحكومة
الواقع . وبهذا كانت تخضع عن طواعية الى انتقال
السلطة من أسرة حاكمة الى أخرى أو من عصبية الى
أخرى . بيد أن الاعتراف بسيادة « الشريعة » كفل
للعادلة وجودا . كما أن الاحساس القوى الذى أشرنا
اليه بالانتماء للأمة ، ويقظة الهيئة الدينية الشرعية
أوجدا أداة عملية ناجزة لاحقاق الحق .

وبالاضافة الى هذا كله كان للمجتمع الاسلامى أن
يعتز بأنه هيا لغير المسلمين مكانا منه ، يتبوأونه عن حق
ومشاركة جدية فى نواحي الحكم والاقتصاد والثقافة .

وأخيرا نصل الى طور « الحكم وفقا لأحكام العقل »
وسنتناول ذلك في الفصل الأخير الخاص بمصر والغرب ،
ونكتفى الآن بأن نذكر أن الظروف ، التي أوجدت ذلك
الطور من أطوار الحكم ، أدت الى الانقضااض على المجتمع
الاسلامى كما ورثناه ، والى محاولة بناء مجتمع مصرى
جديد عن طريق التجريب ، وعن طريق الارتجال ،
وأحيانا تحت حكم الأهواء ، وهذا ما يجب أن يكون ،
ما دما قد نصبنا العقل الانسانى على عرش السلطان •

الانسان والمجتمع فى مصر

هل خلق الفرد من أجل الجماعة - أو خلقت الجماعة من أجل الفرد ؟ وهل الانسان والنحل والنمل وسائر الهوام فى الحياة الاجتماعية سواء بسواء ، أو أن للانسانية ، من حيث هى ، معنى أجل خطرا من انسانية المواطن أو العامل فى الانتاج ؟

اننا لو نظرنا الى طبيعة الانسان نظرا يعده أفق الحياة الدنيا وحدها لتحتم علينا أن نقول : ان كل معانى الوجود الانسانى تحصرها دائرة التاريخ . وفى هذه الحالة لا يكون الفرد من بنى الانسان إلا جزءا من ذلك المجتمع الذى هو أجد أعضائه ، وفى هذه الجملة

كذلك يكون الشيء الذى يهم هو النمو الاجتماعى
للجماعات .

ولكننا لو نظرنا - من جهة أخرى - الى طبيعة
الانسان ومصيره ، نظرنا مركزا فى حياته الآخرة
وحدها لتعين علينا أن نقول : ان كل معانى الوجود
الانسانى تقع خارج دائرة التاريخ . وفى هذه الحالة
يكون العالم بلا معنى وكله شر . وينحصر فى هذه
الحالة كذلك سعى الانسان فى حمل المجتمع كرها ، وفى
الابتعاد عنه . وهكذا نجد المجتمع - حسب النظر الأول
- يبتلع الفرد . ان صح هذا التعبير ، وحسب النظر
الثانى نجده عدوه اللدود ، أما النظر الآخر فيغفل أن
الانسان بحكم أنه كائن اجتماعى لا يستطيع أن يبلغ
الكمال الروحى الذى يسمو اليه الا بعدم الانطواء على
نفسه فيخالط الساعين سعيه الروحى على أساس أن
معرفة الله هى فى جوهرها مسعى اجتماعى .

هذا ولم يتأثر المصريون فى أدوار تاريخهم كثيرا
بالنوع الأول من النظر فى طبيعة الانسان ، ولكنهم
- على العكس - غلب عليهم النوع الثانى من النظر ،
وذلك فى ظل وثنييتهم ومسيحييتهم واسلامهم . فلا نعجب

اذن اذا أدركنا أن العقيدة الدينية لم ترجع كفة الفرد كما كان ينبغي لها أن تفعل ، ولم ترفع عنه عبء ما أوجبه المجتمع عليه بحكم ضرورات لازمت المجتمع المصري ملازمة تكاد تكون دائمة .

وهذه الضرورات التي سوف أتناولها الآن بالشرح أدت الى نوعين من النتائج : الحط من قدر الفرد والزامه بالألا يخرج عمله عن التكرار من جهة . وحصر السلطان في قلة متسلطة ، كانت الجماعات تشقى وتكدح لتوفير وسائل الراحة والمنعة والرفاهية لها من جهة أخرى .

وترجع الضرورات التي أشرنا اليها الى عوامل طبيعية معينة مستقرة في أسس الحياة المصرية ، وهي عوامل تعمل بانتظام وتواصل عملها عاما بعد عام دون تغير جوهري فيها - أو على الأقل - دون تغير ملحوظ منذ فجر التاريخ على ما نعرفه ، ومداه قصير نسبيا . فتوالى الفصول واختلافها والحرارة والرطوبة ، واتجاه الرياح وسرعتها ، وفيضان النيل وانخفاضه ، كل هذه الظواهر الطبيعية تجرى في نسق كامل منتظم الحركة ، كما أن ما يحدث من التغيرات يخضع أيضا لنظام دوري رتيب . وان بيئة هذا شأنها لا بد وأن يجرى

كدح الانسان وكده فيها على سنن منتظمة زتبية ،
الا أنه لابد لهذا الكد من أن يكون ثابتا متواصلا ، وأن
يجرى على نهج نظام تصنعه سلطة عليا واحدة . إذ أن
كل توقف فى الكد والجهد ، وكل توان فى اليقظة
والانتباه ، وكل نزوة من نزوات الفرد ، يعقبها الدمار
والكوارث . ويحق لنا إذن أن نقول : ان مصر التى
بناها المصريون وشادوها تتقاضى من بناتها ثمن بقائها ،
وتفرض عليهم نوع الحياة التى يحيونها . وقد بلغ من
سيطرة مصر على سياستها وقادة أمرها ، ورسمها لهم
خطط ادارتها ، واستغلال مواردها ، أننا نجد - اذا
استعرضنا على سبيل المثال - أعمال أحد سلاطين المماليك
أو الولاة الرومان ، هى هى أعمال أحد البطالة نفسها ،
لم تتغير الا فى الأسماء والأعوام . لقد جعل مؤسسو
مصر منها ضيعة ، وكان من الضرورى من أجل استغلالها
أن يخضعوا سكانها لحكم مطلق مركز ، فيجنون بذلك
ثمرة تنظيمهم لموارد المياه وموارد التربة ، فلا تضيع من
الماء قطرة ، ولا يبقى من الأرض شبر غير منزرع .
ويمكن تلخيص مفتاح النظام كله فى المبادئ الآتية :

الصلة الوثيقة بين الادارة العامة وبين الاستغلال
الاقتصادى ، الأهمية القصوى لعمل الادارة ، الادارة

يجب أن تكون منتظمة يقظة • وما تاريخ مصر
الا مصداق لهذه المبادئ • فلا نعرف بلدا يتأثر أهله
بالحكم صالحا أو فاسدا كما يتأثر أهل مصر • ولا نعرف
بلدا يسرع اليه الخراب اذا ساءت ادارته كمصر •
ولا نعرف بلدا تجرى فيه العوامل الاقتصادية نحو
نتائجها المقدرة دون تمهل ، ودون انحراف كما هو
الحال في مصر • فتستطيع في مصر أن تقدر ما يترتب
على رفع ضريبة من ازدياد الانتاج وازدياد قوة الشراء ،
وتستطيع في مصر أن تحسب ما يساويه مال ينفق على
مشروع من مشروعات الري قطنا كان أو قصب سكر •

فمن الجلي اذن أن بيئة مصر الطبيعية والبشرية
تنزع نحو ايجاد عاملين ، صالحين في الانتاج ، اكثر
مما تنزع نحو ايجاد الثروات الفردية المتباينة •
والمصري في التاريخ انسان متعلق بقريته أو حقله أو
الشارع أو الحي الذي يسكنه أشد تعلق ، قريته أو
مدينته هي وطنه • يشقى في عمله • ويشقى عليه أن
يتركه أو يهجره مهما ساءت حاله ، ومهما انتابه من
كوارث الطبيعة • ولما كانت السنون في مسالكها لا تأتي
بجديد فلا معنى للتطلع الى جديد • واذا ما امتد البصر
الى ما وراء القرية فما الذي يراه : اما أن يرى قرية

أخرى ، و لا جديد فى ذلك ، واما ان يرى الصحراء ،
وما الصحراء الا الجذب والموت ، وأهلها رجال نهب
وقطع طريق • فلا عجب أن يوليها الفلاح دائما ظهره ،
ولم يؤثر عن ابن المدينة أنه هام بشيء اسمه الطبيعة ،
والقروى والحضرى كلاهما عرف الأيام الحلوة والأيام
المرّة ، ولكنهما لم يتصورا وجود عصر ذهبى كان فيما
مضى من الزمان ، ولا يريانه قطعا فى حاضرهما . وان
كانا يرجوانه من الله فى الآخرة جزاء ما صبرا • ليس
العصر الذهبى فى الغابر ، ولا فى الحاضر ، فالظاهر
أن طيبات الدنيا كانت دائما من نصيب القلة ، وكما
قال الأستاذ توينبى : « خلال الخمسة أو الستة آلاف
من السنين الماضية استأثر قادة المدينيات المختلفة بثمرة
كد الجماعات ، وحرموا عبيدهم حقهم فيها دون تردد أو
وخز ضمير • كما نفعل بالنحل نسطو على خلاياه
وعسله » •

وبالبلاء قديم قدم انشاء مصر ، فها هو ذا فرعون
مصر - الملك الآله - يستعرض ما حوله ، ويرى أن ليس
فى الامكان أبدع مما كان فيستهويه الخاطر المضلل ،
فيتوهم أنه هو - وهو وحده - خالق مصر • وفاته أنه
لولا تعاون منظم من جانب فلاحيه ، ولولا سهولة

انقيادهم ، لما كان في وسعه أن يخلق شيئاً • فمارس السلطان وتصرف فيما أنتجه المجتمع بأسره كما لو كان ملكاً خاصاً له • لا يشاركه فيه أحد • ملكاً يخدم أهواءه ومسراته وتمجيده في هذه الدنيا ، وخلوده في الآخرة ، فلا عجب أن نادى في الملأ « أنا ربكم الأعلى » ولا عجب أن انحط شأن الفلاحين فلم يكونوا إلا أدرات إنتاج بشرية • وأخذ المجتمع المصري القديم يتسم بالجمود ، والمحافظة على القديم والتقاليد كما يتسم بالعقم ، مما ناقض أتم مناقضة ما اتصف به المجتمع نفسه عند مولده وفي صباه من صفات الابتكار والاقدام في لحظة من لحظات البطولة •

وفي أدوار التاريخ المتتالية قد يسمو مستوى الإدارة وقد يهبط ، ويعم الرخاء أو البؤس ، ولكن يبقى ما بين الحاكم والمحكوم على ما هو عليه • كان الذي بينهما على أسوأ أحواله أيام الرومان ، عندما كان الزمام الوحيد الذي يكبح شراهة الحكام وسطوهم على ما في أيدي الناس هو خوفهم من أن البقرة الحلوب قد يجف لبنها تماماً •

ثم نصل إلى العصرين المسيحي والإسلامي من تاريخ

مصر وهنا ننظر ، ألا يحق لنا أن نتوقع تحولا أساسيا في العلاقات الكائنة بين الانسان وبين المجتمع ؟ ألم تعلن هاتان الديانتان أن الانسان خلقه الله . وأن لكل مخلوق ، ولكل انسان ، ولكل فرد ذاتية يستمدّها من الله ، ولا يجوز لمجتمع ما ، ولا لسلطان ما . أن يدعى أن له أن يمنحها أو أن يستردها ، وأن على الانسان أن يكسب رزقه . وأن يكمل أدبه وأن يعبد ربه . وهذه شئون شخصية قبل أن تكون اجتماعية . ولكن ، والحق يقال ، لم يتأثر مركز الفرد في المجتمع باعتناقه تلك المبادئ الكبرى للحد الذي يحق لنا أن نتوقعه ، ويرجع هذا الى أسباب : يرجع أولا الى أن القائمين بأمور الدين كانوا يرون أن نزوع الطبيعة البشرية نحو الشر يقتضى الكبح ، وأنه مادام الشر عنصرا من عناصر الطبيعة البشرية فان هناك مجالا لسيف قيصر أو لدرة عمر . ويرجع ثانيا ، الى أن القائمين بأمر الدين كانوا يؤمنون بأن المجتمع لا يمكن أن يقوم الا على ترتيب الناس مراتب ودرجات .

كانوا يؤمنون مخلصين بالمساواة بين أفراد البشر ، ولكن هذا الايمان لم يقتض في نظرهم العمل على ايجاد تكافؤ الفرص بين الأفراد ، والشئ الثابت هو تفاوت

الأفراد في مواهبهم • ولا يضير المساواة الحقيقية أو ينقصها تفاوتهم في الأرزاق • ويسرى في التفكير الاسلامى ، قولا وعملا ، التمييز الواضح بين العامة والخاصة • على أن ما يحق للتفكير الاسلامى النخر به قولا وعملا هو أن هذا التمييز لم يقم على أساس الحسب أو السلالة البشرية أو الغنى • ولكنه كان حقيقة واقعة • وكان له أثره بالاضافة الى عوامل أخرى في تنظيم المجتمع الاسلامى فى مصر على أساس الوظيفة الاجتماعية المخصصة للفرد ، والوظيفة الاجتماعية هي التى تعين حقوقه • فللفرد المسلم صفتان : صفته انسانا مسلما ، وصفته فلاحا أو صانعا أو طالب علم أو كاتباً أو جندياً • الخ • فالحقوق عامة وخاصة ، والواجبات عامة وخاصة ، وقد تطفى الواجبات على الحقوق فتمحوها عمليا أو تكاد •

ان النظرية الاسلامية لتقرر أن الحكم ينبغى أن يكون فى يد أصلح الناس له ، ولكن الواقع يوجب فى الوقت نفسه أن يكون فى يد من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية • ومما يؤسف له أن امتلاك الوسائل أصبح فى النهاية المبرر الوحيد لممارسة السلطان •

هذا هو تراث الماضي، وقد أثر ما حدث من التغيرات خلال القرن التاسع عشر في ذلك التراث على أربعة أوجه :

- ١ - اتخاذ الانسانية المطلقة أساسا للحقوق .
 - ٢ - تغليب صفة المواطن على صفة الفرد ، فلاحا أو صانعا ، أو ما الى ذلك .
 - ٣ - التطلع الى الخير عن طريق التغيرات الاجتماعية والاقتصادية .
 - ٤ - الايمان بما تستطيع أن تحدثه الأنظمة المختلفة .
- والواضح من هذا السرد أننا نركز النظر في مجتمع جديد ، وأن عنايتنا بتكوين فرد جديد لا تعدو أن تكون وسيلة لايجاد المجتمع الجديد المثالي ، وهذا ما نستطيع أن نقوله عن الفرد والمجتمع في عصرنا الحاضر .

المدينة والريف فى تاريخ مصر

ظلت حضارة مصر حضارة مجتمع ريفى خلال آلاف السنين من تاريخها . حقا كان لمصر مراكز حضرية ، وكانت لهذه المراكز مكانتها فى حياة البلاد القومية ، الا أن الحضارة مع ذلك كانت هى حضارة الريف وسكان الريف .

وانا لنتساءل الآن كيف كان طراز تلك الوحدات الحضارية فى مصر القديمة . كان هناك « بنادر » (الأقاليم اليوم) ولكنها كانت فى الحقيقة قرى كبيرة . وان قامت بما تقوم به المدينة ، اذ كانت مراكز الادارة المحلية ، والعبادات المحلية ، وفيها كان يعقد

السوق والمواسم ، كما كانت هناك قواعد المملكة ، وكانت النزعة الغالبة جعل قاعدة البلاد أو العاصمة في اقليم منف ، أى حيث تلتقى الدلتا بالوادي ، وفوائد ذلك واضحة جلية ، الا أن مؤسس الامبراطورية الجديدة قاوموا اغراء الاتجاه نحو الشمال ، واتخذوا طيبة قاعدة ملكهم القومي والامبراطوري - وكانت هناك أيضا مدينة الجامعة الشهيرة - أو بمعنى أدق - المدينة الكهنوتية - « أون أو عين شمس » ، كما كانت هناك المدينة التي أسسها اخناتون « مدينة أخيتاتون » لتكون مركز العقيدة التي فرضها ، الا ان هذه لم يقدر لها أن تعمر طويلا . وما تبقى منها من آثار في « تل العمارنة » يدلنا على وجهة نظر المصريين في فن تخطيط المدن - وأخيرا أمامنا طراز من المنشآت - يهمننا أمره عند دراسة التطورات الآتية بعد ، نعى بذلك مدن المعسكرات المقامة عند الحدود ، مثال ذلك « دافنى » في شرق الدلتا ، و « ماريا » في غربها « الفانتين » أو (جزيرة الفيلة) جنوبا ، و « ثوقراطس » الواقعة في الدلتا ، وان كانت على اتصال ملاحى بالبحر الأبيض المتوسط - وقد أتاحت تلك المعسكرات لفراعنة مصر أن يسكتوا العصابات الحربية المتبريرة ، كالليبيين

مثلا ، أو الاغريق ، أو اليهود ، ممن كانوا يجندون ،
وكان لزاما عليهم أن يوجدوا مواطن لهم ، لا بوصفهم
جنودا فحسب ، بلى بوصفهم جاليات أجنبية تقيم في
مصر دون أن تكون من مصر ، وكان أهم تلك الجاليات
شأنا اليهود والاعريق . وسنشرح هذا الجانب من تاريخ
مصر بعد ، بشيء من الاسهاب ، الا أن الثقافة المصرية
الكبرى كانت تستقى مادتها دائما من ينبوع الطبيعة
الريفية لا من الحياة الحضارية . فأصول الثقافة انما
غذاها التأمل في مظاهر الحياة والموت والنشور . وان
وهن المدينة المصرية المادى ليصور لنا وهنها المعنوى
أدق تصوير .

هذا ولما آذن العصر الفرعونى بالزوال بدأت فصول
جديدة من التاريخ ، كان للمدينة فيها المقام الأول ،
وكان الاسكندر الأكبر هو أول من أزاح الستار عن
ذلك الفصل الجديد من فصول التاريخ . ويوصف ذلك
الفصل الجديد اجمالا بأنه حضارة جديدة تكرنت من
عناصر متباينة ، صهرت في بوتقة المدينة المصرية .
فالمدينة هي حجر الزاوية فى الامبراطورية كما تصورها
الاسكندر الأكبر .

اذ كانت الفرصة فى المدينة مواتية لكى تؤثرالعناصر

الوطنية والعناصر المستوطنة بعضها فى بعض • وفيها
تستطيع العناصر كافة أن تجد الجو المادى والروحى
الذى يمكنها أن تعيش فيه • ومدينة « الاسكندرية »
شاهد على ذلك • ويجب علينا أن نذكر أنها عرفت
رسميا بأنها « الاسكندرية المتاخمة لمصر » فليست هى
مصر أو من مصر •

وقد كان البطالة حذرين فى تنفيذ سياسة نشر
الحضارة الاغريقية عن طريق انشاء المدن • فتعارضت
سياساتهم فى هذا المضمار مع سياسة منافسيهم السلوقيين
فى سوريا • ويرجع ذلك الى أن البطالة كانوا يدركون
أن المدينة الهيلينية — من الوجهتين الروحية والمادية —
لا بد لها من أن توهن على الأيام الحياة الاقتصادية
التقليدية ، وتفكك أواصر المجتمع • لذلك لم يؤثر
عنهم الا شيئان هما : اعلاء شأن الاسكندرية وانماؤها
حتى ازدهرت وأصبحت مركزا عظيما من مراكز
الحضارة الهيلينية ، وتأسيس مدينة « توليماس » فى
الصعيد • وكان البطالة يفضلون اسكان جندهم فى
الريف واقامتهم زراعا مستعمرين •

وقد كان ذلك بداية ارتباط وثيق بين الريف
والمجندين — وكانوا عادة من الأجانب — ذاك الارتباط

الذى دام حتى بداية القرن التاسع عشر . وقد اتخذ ذلك الارتباط مظهرين - أحدهما : مرابطة الجند فى الريف مثلا - أما المظهر الآخر فهو تخصيص دخل الدولة من الأراضى الزراعية بالذات للاتفاق على القوات العسكرية - ويجدر بنا فى هذه الجولة العاجلة أن نلاحظ أن أولى الأمر فى امبراطورية الرومان ، رغبة منهم فى قهر مقاومة المصريين على التغلغل عن قوميتهم ، حولوا عواصم الولايات - تلك المدن التى كان يطلق عليها اسم : « متروبوليس » الى بلديات ذات حكم ذاتى . وقد تم ذلك فى القرن الثالث الميلادى حينما كانت مصر تجتاز ذاك الطور من ثقافتها التى كانت مزيجاً من الحضارات المصرية والهيلينية واليهودية ، لتصبح ذلك المزيج الفذ : المسيحية « المصرية » .

وهنا نقف لحظة لنلقى نظرة الى الوراء ، الى ثقافة ما قبل المسيحية ، وهى التى تسمى عادة حضارة الاسكندرية ، وهى تسمية عملية وان كانت لا تعطى استسرار التقاليد المصرية الخالصة فى الريف حقها من الاعتبار . ولا عجب فان تلك التقاليد خبا نورها الى جانب ما كان للاسكندرية من بهاء وسناء .

ويمكن للباحث أن يستعرض ثقافة الاسكندرية من وجهتى نظر ، هما : وجهة نظر الجماعات الثلاث التى أسهمت فى تكوينها ، أى من ناحية ما كان لتلك الثقافة من أثر فى ازدهار وتنمية التقاليد الخاصة بكل جماعة منها ، كما يصح أن يستعرضها من ناحية انبثاقها وبزوغها ثقافة انسانية عامة بالمعنى الحقيقى لذلك الوصف . ومما لا شك فيه أن كلا من التراث القومى لليهود والهيلينيين كان بفضل ما تم بينهما من اتصال فى مدينة الاسكندرية .

وحسبنا أن نشير الى ما بذل من جهود متواصلة فى دراسة روائع الأدب الهيلينى الكلاسيكى ، والى ازدهار الأدب اليهودى فى الاسكندرية ، مما يبرهن على ان الحضارات القومية المتصلة اتصالا حيويا بالحضارات الأخرى تكون دائما بمنأى عن خطر الاضمحلال أو الفناء . وبينما كانت التقاليد الثقافية القومية المختلفة تتفاعل على هذا النحو تفاعلا مثمرا فيما بينها ، حدث فى الوقت نفسه بزوغ اتجاه عام جديد نحو معالجة الشؤون الكبرى لحياة البشرية فى هذا العالم . كان هذا الاتجاه فى بعض الأحيان غير مباشر ، ومثاله البحث العلمى الذى مارسه الاسكندريون ، وكان هدفهم منه

جمع الحقائق وتنسيقها • سواء التي تتعلق بالفلك أو بالطبيعة أو بعلوم الأحياء والجغرافيا أو غيرها • وكان هذا الاتجاه في أحيان أخرى يهدف إلى معالجة الشؤون الكبرى باتخاذ أقصر الطرق ، ومثال ذلك انشاء اله أو معبود واحد (هوسيرايبس) تركيبا من آراء دينية مصرية واغريقية ، وفي أحيان أخرى كانت تلك الشؤون تعالج من الناحية التصوفية والفلسفية • وكانت المشكلة التي تشغل بال الاغريق واليهود ، ومن بعدهم المسيحيين في الاسكندرية ، هي مسألة علاقة الله بالكون وبخاصة بالانسان •

ولم يقيم المصريون بنصيبهم في صخب الحياة الروحية وغمارها وخضمها الا بعد انتشار المسيحية ، وتفتت الصخرة الصلبة صلابة الجرانيت في قلب المجتمع المصري القديم ، وكانت ثمرة روحانيتهم المسيحية نظام الرهبنة • والنظام في صميمه ولبه ثورة الفلاحين المصريين ، وهي في ظاهرها ثورة على الحياة الدنيوية ، ولكنها في حقيقتها وواقعها ثورة على المدينة ، وكل ما ترمز له المدن وحياة المدن ، وقد ترنت في وهاد الجذب والعقم والعنف والرذيلة •

هذا وقد أعاد انتشار الاسلام « للمدينة » مكانتها

المسيطرة المهيمنة فى المجتمع المصرى ، فثقافة مصر
الاسلامية ثقافة حضارية • وقد شهدت القاهرة - ومدى
أقل بعض المدن فى الأقاليم - ازدهار تلك الثقافة
ازدهارا كاملا، وتبوءت القاهرة مكانة ممتازة بين مراكز
الحضارة الاسلامية ، وذلك فى ميادين الفنون ونشر
العلم ومرفهات الحياة • هذا وقد درج بعض علماء
الغرب على أن ينكروا على المدينة الاسلامية الصفة
الحقيقية التى تتسم بها المدينة • ومن رأى أن ما سجد
بهم الى اتخاذ ذلك الرأى يرجع الى أن المدينة الاسلامية
تفتقر الى مراسيم انشاء الأنظمة المدنية ، ولكن مع
ذلك لا مراء فى أن مدينة القاهرة الاسلامية قامت
بنصيبها الأوفى فى بناء مصر السياسى ، وكان هذا
بفضل هيئاتها المدنية ومعاهدها الدينية مضافا الى ذلك
- وهذا مالا يصح اغفاله - الفتن الشعبية ، فنصيب
القاهرة فى الأحداث لا يمكن تجاهله •

هذا وبفضل نمو الطوائف الصوفية ، وتمسك
الشعب عامة بالقصص الشعبى ، خلقت الصلوات التى
كانت تربط الريف بالمدينة ، تلك الصلوات التى بقيت
الى يومنا هذا •

هذا وقد شهد عصرنا الاتجاه نحو ادماج المدينة والريف فى فكرة المواطنة المشتركة ونمو فكرة الدولة، ولكن مازال أمامنا طريق طويل ، علينا أن نسلكه قبل أن نصل الى موازنة صالحة بين الاثنين من وجهة النظر الثقافية .

مصر والعهد القديم

ما هي طبيعة علاقات مصر « بينى اسرائيل » ،
اولئك القوم الذين تحدث عنهم العهد القديم وعن أحداث
تاريخهم وجهودهم الروحية بتلك الروعة وذاك السناء ؟
هل أسهموا فى تكوين مصر اسهام الحضارة الهيلينية
والمسيحية والاسلام والغرب فيه ؟

اننا نعرف أنه كان هناك مصريون مندمجون فى
الاغريقية ، واغريق « متمصرون » ، كما كانت هناك
مصر المسيحية ومصر الاسلامية ، ونعرف أن الغرب قد
سيطر على مصر ، وأن مصر اتجهت الى الغرب حيناً ،
كما أشاحت بوجهها عنه أحياناً ، وكان ذلك فى الحالين
عن وعى وادراك .

ولكن ترى هل كانت مصر على علاقات مماثلة مع
بنى اسرائيل ؟ ولكى أجيب عن هذا السؤال يجدر بى
أن أميز بين نوعين رئيسيين من الصلات بين الشعبين .
فأما النوع الأول فيرجع الى فترة ما بين بداية كتب
العهد القديم الرسمية ونهايتها ، أى حتى ذلك الحين
الذى كانت فيه مصر وفلسطين مندمجتين فى امبراطورية
الفرس وفى ابان الأحداث الخطيرة التى ترتبت على
فتوح الاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد .

وأما النوع الثانى فيبدأ عندئذ ، أى عندما أخذ
اليهود فى الاستيطان فى مصر ، وقد قدر لليهود أن
يكون لهم أثرهم فى حياة البلاد الاقتصادية والثقافية ،
لكنهم كانوا فى هذه الحالة عاملا من عوامل تكوين
مصر المسيحية والاسلامية ثم مصر المتصلة بالغرب ،
فيجدر بنا اذن أن نترك أمرهم لأحاديثنا فى تلك
الموضوعات وأن نخصص الحديث الحالى لعلاقات مصر
باليهود العهد القديم .

ومن رأى أن تفسرى لتلك العلاقات يكون أوضح
وأبين لو اخترت وقائع وحوادث معينة ورتبتها ترتيبا
زمنيا ، ولنبدأ بزيارة ابراهيم ، وقد وقعت تحت
ضغط المجاعة . وهى تبدو لنا مثلا قديما جدا للعلاقات

بين الأقوام من رعاة الصحراء أو ما يشبه الصحراء
وبين وادى النيل - ويرى بعض الثقات أن قدوم ابراهيم
حدث فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، كما أن بعضهم
يوقتها بعد ذلك - ويجب علينا أن نلاحظ أنه كان
لسارة زوجه ابراهيم جارية مصرية ، هى هاجر أم
اسماعيل ، وقد أسكنها ابراهيم ببلاد العرب كما هو
معروف - كما يجب علينا ألا ننسى قدوم يوسف الى
مصر وما صادفه من تقلبات الحظ بين سعد ونحس ،
حتى آل به الأمر الى توليه السلطة كوزير لفرعون
مصر ، ولقد أثرى هو وشعبه ثراء عجيبا ، وابتسم لهم
الحظ - ويقول بعض المؤرخين ، ويعارضهم آخرون :
ان ذلك حدث فى عهد الغزاة الأجانب الذين كانوا
يسمون بالهكسوس ، والهكسوس فى الواقع فتحوا أبواب
البلاد لاختلاط من الناس وفدوا عليها من الشرق -
ويبدو أنه فى أيامهم ازداد اليهود الذين كانوا يعيشون
فى مصر عددا وثراء ، وامتلات خزائنها وحظائر
ماشيتهم ، كما اكتسبوا مهارة فى ميادين الفنون المختلفة
المعروفة عند المصريين ، كصناعة المعادن والحفر على
الأحجار الكريمة والصباغة والنسيج ، وكان يجمعهم
نظام يرأسه « شيوخ » من أنفسهم - وعلينا أن نذكر

أنهم عندما غادروا مصر كان رحيالهم على شكل حشد
ونظام عسكري ، أى رحيال أولئك الذين لهم يؤثروا
البقاء بعد انتهاء حكم الهكسوس .

وتنتقل بنا القصة الى ما قامت به الأسرة الثامنة
عشرة من أعمال عسكرية باهرة وانتصارات فى آسيا ،
والى إعادة تنظيم الامبراطورية والى الآثار الكبرى التى
شيدوها والى ذلك الحدث المفاجئ : ثورة اخناتون
الدينية . وهذه العبادة التى فرضها اخناتون - عبادة
قرص الشمس تحت اسم أتون - يمكن أن تعتبر ، على
وجه ضيق - شكلا من الأشكال المتعددة لعبادة الشمس،
ولكنها تفوم على الايمان بانه واحد توى حى ، وبدا نشأ
نوع من التقارب بين هذا التطور فى عقيدة المصريين
وبين توحيد اليهود .

والآن نتساءل ما أثر العقيدتين احدهما فى
الأخرى ؟ وليست الاجابة على هذا السؤال بالأمر الهين،
فان العمل الجليل الذى قام به اخناتون كان يتسم
بطابع الابتكار الشخصى فى طموحه وتحقيقه . ولكن
تشابه الأفكار - ودع التشابه اللفظى جانبا - بين
أناشيد اخناتون وبين بعض المزامير يسترعى من النظر
والفكر ما يدعو الى دقة وزنه وتقديره حق قدره . ولن

تدهش اذا كان زوال سلطة عبدة أتون مرتبطا بعض الارتباط باضطهاد بنى اسرائيل فى عهدة الأسرة التاسعة عشرة كما يرى المؤرخون عامة ، وقد يكون هذا الاضطهاد قد بدأ قبل ذلك وأنه نبت فى كراهية المصريين للهكسوس وشيعتهم وأذنا بهم . وقد يكون رد الفعل الذى أعقب وفاة اخناتون قد أدى الى النفور من جميع عبادة المعبودات غير المصرية ، ثم حدث أن فراغنة الأسرة التاسعة عشرة ، وقد كان من بينهم فرعون بنى اسرائيل (ولا نعرف من هو) ، اهتموا بتشيد العمائر الضخمة ، مدنية وعسكرية ، ولم يسخروا فى تشييدها - كما كان يفاخر رمسيس الثانى - الا عناصر من غير الأهلين . ونصل بذلك الى المرحلة التالية ، والشخصية البارزة فيها هى شخصية موسى ، الذى أخفته أمه فى بردى النهر لتنقذه من ذلك الأمر القاسى الذى أصدره فرعون بذبح المواليد الذكور كافة ، وتبينته امرأة فرعون . ونما موسى وترعرع فى كنف ثقافة مصرية ، ولكن قدر له أن يثور عليها . وقد ورد فى القرآن الكريم ذلك العتاب المؤثر الذى وجهه فرعون لموسى : « ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين » .

ثم هرب موسى الى مدين ، ثم كان أن اختاره الله

وأمره بالذهاب الى فرعون ، ليكف عن تعذيب بنى اسرائيل ، وليسمح لهم بالخروج من مصر ، وتمكن موسى ، آخر الأمر ، من أن يخرج بقومه . وفى رواية العهد القديم وصف البحر الذى عبروه بأنه : « بحر ملىء بالحشائش والعشب » كما لم يرد فيها نص على أن فرعون نفسه كان ممن هلكوا ، وقد حمل اليهود معهم أمتعتهم ومقتنياتهم وجثة يوسف . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يرد ذكر شيء من هذا كله فى النصوص التاريخية المصرية ، وسأعود الى هذا مرة أخرى .

والآن تنتقل القصة الى الحوادث المتصلة بالتيه والوصايا العشر ، والاستيلاء على أرض كنعان ، ثم قصة يوشع وعهد القضاة ، ثم قصة صمويل والمملكة حتى حكم سليمان ، وما امتاز به من ضخامة وعظمة . ومن هنا — حتى نهاية العصر الذى حددناه — نتناول شرح ما يجوز تسميته بسياسة توازن القوى .

ننتقل الآن الى سوريا وفلسطين مقسمة بين دويلات ومدن متناهية فى الصغر ، وتحيط بها دول ملكية قوية تمارس بنشاط وهمة سياسة التغلب . ولذا فاننا نجدها تحاول أن تملك أو تسود الأراضى الفلسطينية السورية ، وكانت بمثابة الجسور والمعابر ما بين مصر

وغربى آسيا ، ومن ثم اهتمت مصر اهتماما عظيما
بشئون جيرانها . ولما لم تكن من القوة والسلطان بحيث
تستطيع الاستيلاء على أرضهم أو ضمها اليها الا فترات
قصيرة من الزمن ، فانها وجهت جهودها للحيولة دون
وقوع تلك البلاد فى أيدي أعدائها ، ولو حدث وسقطت
تلك البلاد بالفعل فى أيديهم فان مصر كانت تعمل على
اثارة المتاعب لمحتليها . وقد كان هذا قصارى جهدها
فى ذاك الحين ، اذ كانت قوتها قد أخذت فى النقصان،
بيد أن أثرها فى الثقافة اليهودية كان ملحوظا فى عصر
سليمان فنشأت صلات تجارية بين البلدين ، وكانت
مركبات الحرب والخيول أهم صادرات مصر ، كما أننا
نشاهد نفوذ مصر فى ازدياد المظاهر الملكية عند اليهود .
وترجع فخامة العمارة وأبهتها فى عصر سليمان بعض
الشيء الى محاكاته المصريين دون شك ، فشكل المعبد
ذاته فى جملته بأبهاؤه ومدخله ، والعمودين البارزين
القائمين كالمسلتين أمام المدخل ، وكذلك الأسدين
القائمين على عرش سليمان ، كل ذلك يحمل الطابع
المصرى . وفى الحقيقة كان نظام ملكه منقولا عن
الامبراطورية المصرية الكبرى .

والآن كيف نقارن بين هذين الشعبين ؟ لقد كانا على
طرفى نقيض فى كل شيء . كان أحدهما يمثل مجتمعا

مستقرا متماسك الأطراف مترابط الصلات ، تحت سلطان حكومة دينية دنيوية ، أما الآخر فشعب قلق مضطرب يسعى الى بلوغ اليقين ولا يكاد يبلغه . ولم يكن بينهما يوما من الأيام ود موصول . قال المؤرخ المصري مانيتون : ان اليهود انحدروا من شطر من الشعب المصري طرد من مصر على اثر اصابته بالبرص والقراع . ولكن كم من الناس يقرأ مانيتون ؟ وعلى أية حال فان كتبه قد ضاعت . ولم يرد ذكر اسرائيل كثيرا فى سجلات تاريخ مصر ، ولكن اذا أردت النظر الى الجانب الآخر رأيت أن العقيدة اليهودية قد لحقت بالمسيحية ، وأن العهد القديم جزء من الكتابات الدينية المسيحية ، وأن الصورة التى وردت عن مصر والمصريين فيها قد انطبعت فى عقل كل طفل وكل رجل وامرأة فى العالم المسيحى جيلا بعد جيل ، بحيث لا يمكن أن تحل محلها أية صورة أخرى تخالفها . زد على ذلك أنها ترد فى كتب سماوية ، وعلى أساس ما كان لتلك الصورة اليهودية من أثر فى عقول الملايين من اليهود والمسيحيين وفى موقفهم العقلى والعاطفى لا من مصر الفرعونية فحسب ، بل من مصر عموما يمكن القول بأن كتب العهد القديم قد عملت هى أيضا فى تكوين مصر ، وان كان ذلك على نحو خاص بها .

مصر والهيلينية

ما هي الهيلينية ؟ يرى بعض المؤرخين أنها ثقافة جديدة تتركب من عناصر اغريقية وعناصر شرقية ، بينما يرى آخرون أنها امتداد الحضارة الاغريقية الى الشرقيين . وفى نظر فريق ما هي الا استمرار المدنية الاغريقية الأصلية ، وهناك فريق آخر يرى فيها المدنية الأصلية نفسها معدلة بظروف جديدة .

ولندع هذا وذاك ونقول مع المؤرخ « تارن » ان « الهيلينية » ما هي الا وصف موجز لمدينة القرون الثلاثة التى بدأت بفتوحات الاسكندر الأكبر . والتى انتشرت فيها الثقافة الاغريقية بعيدا عن موطنها الأصلي ، ولهذا رأى ميزته . وهى تناول الموضوع

موحدا ، ولكن ينبغي علينا أن نتذكر دائما أن القرون الثلاثة التي حددها الدكتور « تارن » كانت اتصالا لحركة توسع واسعة النطاق ، لا من جانب اغريق بحر ايجيه فحسب ، بل من جانب أقوام آخرين اتصفوا بالاقدام والمخاطرة . وبخاصة الفينيقيين والأثوريين . كما يجب علينا أن نستذكر أنه حدث بعد تلك القرون الثلاثة أحداث هي جزء لا يتجزأ من قصة الحضارة الهيلينية ، ألا وهي : انشاء الامبراطورية الرومانية ، ونشر الديانة المسيحية .

أما الشرط الثاني من تعريف الدكتور « تارن » وهو اشعاع الحضارة الاغريقية من موطنها الأصلي ، فهذا أيضا مما يجب ادراكه جليا ، وأود أن أشرح في هذا الحديث حقيقة ما كان من أمر هذا الاشعاع واتجاهاته وحدوده . وفي الحق سوف نلاحظ أن اشعاع الحضارة الهيلينية كان يبلغ أثرا وأجدى ثمرة بعد انقضاء القرون الثلاثة للعصر الهليني بآمد طويل ، وفي أوضاع لم تخطر على بال الأسرات اليونانية المالكية التي ورثت الاسكندرية وكذلك لم تخطر على بال الأباطرة الرومانيين ، ولا في مواطن لم تصل اليها جيوشهم : لا في فارس تحت حكم الساسانيين ، ولا في

العراق تحت حكم الخلفاء العباسيين، ولا في ظل مدارس التفكير الإسلامية والمسيحية، ولا في فنون الساسانيين والشرق الأقصى والفنون القبطية، كما لم ينبعث هذا الإشباع المثمر من الاسكندرية أو أنطاكية اللتين ظلتا تحت سلطان الاغريق والرومان قرابة ألف سنة، بل انبعث من مدن غير مطروقة لا تخطر على بال، كجنديسابور في غربي فارس أو واحة مرو في حوض نهري سيحون وجيحون، أو من حران مدينة الصائبة في الجزيرة.

وأدوار الحضارة الهيلينية الأولى - كما حددتها - تتوافق مع زوال عصر الامبراطوريات القديمة، ان لم تكن قد ترتبت عليه، أفلت فيه نجوم وبزغت أخرى، ودرست الامبراطوريات المصرية والآشورية والبابلية الجديدة، ودخلت في خبر كان. وعلا شأن شعوب فتية: هم الاغريق والفينيقيون والأثوريون والميديون واليهود والآراميون والرومان. وقد امتد نشاط هذه الشعوب الى ميادين أوسع وأرحب من تلك الامبراطوريات القديمة، وانطلقوا في البحر والبر على السواء، ولم يقفوا عند حد اقامة دولة قوية فحسب. ولم تكن فتوحاتهم عملا حريبيا صرفا، بل أضافوا الى تاريخ

الانسانية فصلا أكثر غنى بحوادثه ، وأكثر اشارة
للتأمل مما سبقه من الفصول .

الى جانب هؤلاء أتى قومنا المصريون ، وقد تقدمت
بهم السنون ، وأثقلت كواهلهم أحداث الماضي ، ولم
يبدأوا حياة جديدة قادرة على الخلق والابتكار ، ولم
يتلقوا رسالة من الأمل الا عند مقدم المسيحية وظهور
الاسلام

وكان أول ما تلاقت مصر بالهيلينية عندما قدم
المغامرون الاغريق الى مصر تجارا وملاحين وجنودا
مرتزقة ، وقد استخدمهم الفرعون « بساماتيك »
وحلفاؤه برا وبحرا فى قتال الأشوريين والفرس
وحلفائهم من بعدهم ، وفى قتال الفينيقيين ، وفى فتنهم
وحروبهم الداخلية ، وقد استقر هؤلاء الاغريق فى مدن
عسكرية ، وفى مدينة « نوقراطس » وفى بعض احياء
المدن المصرية الصميمة ، ومنحوا حرية تنظيم مدنهم
وأحيائهم وفقا لأسلوب معاشهم الخاص ، وفى ظل
قوانينهم وأنظمتهم . وكانوا تجارا - أو على الأصح
وسطاء - كما كانوا جندا وملاحين . وكانوا يمارسون
مختلف الصناعات ولم يكن بينهم وبين المصريين
ود موصول ، بل كانت تثور العداوة بينهم أحيانا .

ولا عجب ، فالأغريق في نظر المصريين لا يكادون يستقرون على حال ، أطفال قلقون ، وليسوا - في الغالب - رجالا يمكن الوثوق بهم أو الاعتماد عليهم .
والمصريون في نظر الأغريق يرزحون تحت عبء الكهولة والوقار والخزعات الموروثة ، وكان شعور الأغريق نحو مضيفيهم الذين لم يرحبوا بهم ترحيبا كثيرا هو شعور التطلع والاستغراب المتفكك الذي لا يخلو من الاحتقار . وقد زار مصر مشاهير الأغريق كأفلاطون وسولون وهيرودوت ، ولكن يجدر بنا ألا نغالي فيما أثمره هذا اللقاء ، من أثر ثقافي متبادل .

وفي هذه الأثناء كان سلطان فارس يمتد سريعا ، وهكذا بينما نشهد انتشار الهيلينية من الغرب نحو مهد المدن القديمة . كان الفرس بنو عمومة الأغريق الأبعد يبسطون سلطانهم على ما يقع غربي بلادهم . وقد كان هذا التوسع الفارسي نقطة البداية للتبادل الثقافي الثمر مع شتى الشعوب في سوريا - فعاد اليهود إلى أوطانهم من المنفى واتسع المجال لانتشار الثقافة الآرامية ، وزاول الفينيقيون نشاطهم التجاري في إمبراطورية فارس . ثم حدث أن إمبراطورية فارس جاورت المدن الأغريقية في آسيا الصغرى ، ولم ترتفع

لجوارها فكان أن تشعبت الحروب المشهورة بين الفرس والاغريق . فى الوقت نفسه كان حلفاء فارس وهم الفينيقيون يشنون حربا شعواء ، ويصارعون الاغريق صراع حياة أو موت ، وذلك فى أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط كافة ، وكانوا فى ذلك الصراع متحالفين مع الأتوريين .

وقد أدى ذلك كله الى امتلاك فارس لمصر ، ولكنها أخفقت فى اخضاع المدن اليونانية ، بينما اضطر الاغريق الى الانسحاب من غربى البحر الأبيض ، وتركه لسيادة قرطاجنة وهى المستعمرة الفينيقية الذائعة الصيت .

ولكن الآية لم تلبث أن انعكست تماما ، واستطاع الاسكندر الأكبر فى خمس سنوات فقط أن يعطلم امبراطورية فارس ، وأن يقود جحافلها الى الهند . وكان هذا ايدانا بفتح صفحة جديدة فى قصة الحضارة الهيلينية وفى تاريخ مصر ، وأن لمصر أن تعرف الاغريق حكاما عليها لا جندا مرتزقة أو تجارا صغارا بيد أن الحضارة الهيلينية التى دخلت مصر تحت حكم البطالمة وخلفائهم الرومان لم تكن الحضارة الأصلية التى ترد على خاطرنا كلما ذكرنا تلك الأسماء الخالدة : بركليس

وأفلاطون وسوفوكليس • لا ، لم يكن شيء من هذا ،
فالبطالة لم يسمحوا بإنشاء النظم الحرة بين رعاياهم
الاغريق ولم يتيحوا لرعاياهم المصريين فرصة المواطنة
الحقة فى دولة ذات قومية حقيقية ، بل على العكس من
ذلك ، بقى الاغريق منعزلين وظلوا طائفة مميزة ، وهو
أسوأ ما يمكن أن يحقق - آخر الأمر - بأية طبقة من
طبقات الشعوب • وظل المصريون يعملون - كما فى
التعبير الانجليزى - «حطابين محتطبين ومالئى الدلاء» ،
يعاملون معاملة الأجناس المستعبدة ، يكدون ويكدحون
حتى يسقطوا من الاعياء ، حرموا من أن ينهض بينهم
زعماء منهم ، وتركوا نهبا لقساوستهم المتعصبين • وقد
أبقى الملوك البطالة وقياصرة روما على السخافات
والمساخر الدينية ، عن سوء قصد ونية . وأصروا على
الامعان فيها ، وهم فى قرارة أنفسهم يحتقرونها بكل
جوارحهم •

وماذا كانت نتيجة هذا كله ؟

كانت نتيجة تكوين مصر ، يصفها المؤرخ الرومانى
« ناسيتوس » فيما يلى بقوله :

« هى ولاية من العسير الوصول اليها ، تنتج الفلال ،
مشتتة الفكر والخواطر وسريعة الاستجابة لدواعى الفتن

تحت تأثير الخرافات والفوضى، تجهل القانون ولا تعرف
خطط القضاء والحكم ! » .

وتكلم « بوليبيوس » ، مؤرخ روماني آخر ، عن
شعب الاسكندرية فوصفه بالشعب الهجين .

ووصف « دون كريزوستوم » المتبحر في علوم البيان
والجدل والسفسطة ، الاسكندرية بأنها مدينة قد جنت
بالطرب وسباق الخيل ، لا تشغل بأي شيء جدير
بعظمتها ومكائنها .

وانه لأمر يسترعى النظر أنه مهما كد القاريء في
البحث عن تأثير مصر والمصريين في أدباء الاسكندرية
اليونانيين لم يجد شيئا يعتد به ، لا في منشورهم ولا في
منظومهم على حد سواء .

هذا وان كانت قد نشأت في ريف البلاد جاليات
مختلطة من المصريين والاغريق متأثرة فعلا بالحضارة
الاغريقية ، فان هذه الجاليات كانت من ضعة القدر
والمكانة ، بحيث لم تستطع أن تنتج أو تثمر تلقيح
الحضارة المصرية بالحضارة الهلينية - وقد تأثر اليهود
أيضا بالحضارة الاغريقية تأثرا اقتضى أن تترجم كتبهم
الدينية الى اليونانية لكي يستطيعوا فهمها والانفتاح

بها ، لكن اليهود - كماداتهم - شغلتهم أنفسهم عن أى شىء آخر . حقا كان العصر كله عصر استغلال وأثرة وعداوات للشعوب ، ولم يبد أى فريق ممن برزوا على مسرح التاريخ خلاله أحسن ما عنده .

وجاءت الثورة من الطبقات الدنيا ، فاضطر البطالة - وهم يرزحون تحت ضغط الاعياء الاقتصادى ، ووقف تدفق المهاجرين الاغريق ، وفى سبيل مواصلة حروبهم مع الأسرات المقدونية المالكة الأخرى الى استخدام رعاياهم المصريين جنودا ، ولذا شرعوا فى التخفيف من وطأة حكمهم وأنظمتهم . وأضاف مقدم الرومان عمرا جديدا الى ذلك الطراز البغيض من الحضارة الهيلينية . ولكن الثورة التى بقيت تعمل فى الأعماق تمكنت فى النهاية من أن تقضى على ذلك الصرح الشامخ الذى شيده قياصرة روما . وكانت هذه هى مهمة المسيحية ، وما حققته من عمل مجيد .

أما عن تحرر مصر من الكابوس الهيلينى الرومانى . فهذا ما سأتناوله فى حديثى المقبل . وسنرى عندئذ أن الحضارة الهيلينية لم تعمل فى تكوين مصر عملا نافعا خيرا الا عن طريق ذلك العنصر الاغريقى الكامن فى المسيحية .

مصر والمسيحية

يدخل فى تكوين مصر عنصر مسيحي هام كل الأهمية ، وليس مرد ذلك الى أن المسيحية عقيدة فريق من أبنائها فحسب . بل لأن المسيحية فى عالم مسيحي هى التى كونت النظرة الروحية لأبنائها كافة .

وقد كانت مصر التى حمل اليها يوحنا مرقس المبشر بالانجيل رسالة المسيحية - كما جاء فى الرواية المتواترة - خليطا من طرازين مختلفين بن البيئة ، فمن ناحية كان هناك سكان المدن الذين يتكلمون باليونانية وبخاصة فى الاسكندرية وهم من الاغريق والمصريين المشبهين بالاشريق واليهود ، وهؤلاء جميعا

تأثروا بالمؤثرات الدينية والثقافية السائدة في المدن الهيلينية في القرن الأول من العهد المسيحي . وتأثروا من الناحية الأخرى بطراز البيئة المصرية الصميم . أما في البيئة الحضارية التي كانت تضم ذلك الخليج من الطوائف الذين ذكرناهم ، فقد كان القوم في تلك الآونة ينشدون تلك الوحدة التي كانت لأمرأ يستمدون وجودهم من وراء مختلف الآلهة وعباداتهم . كما كان القوم يسمعون أيضا نحو الحصول على طهارة الأنفس ، وقد احتوت الديانة المسيحية - بالإضافة الى شخصية المسيح - على شيئين حيويين خلت منهما الديانة الهيلينية ، ففي تلك الديانة ، بوجه عام ، لم يكن يؤمن بعقيدة الخلود في عالم آخر الا قلة من الأخيار المحسنين أو جماعة من المطلعين على أسرار بعض الديانات ذات الطقوس السرية التي تعلق بها الناس اذ ذاك ، أى لم تكن عقيدة الانسانية عامة . ولم يكن حب الانسانية أساس أية عقيدة هيلينية ، كما لم تحمل واحدة منها رسالة الى البائس والمسكين والخاطيء والمسيء . وقد كان مذهب الرواقين أقرب المذاهب الى ذلك المثل الأعلى الانساني ، ولكننا لا نجد يفسح مكانا للمحبة . ولذا لم يكن للعاملين المرهقين المثقلين الا أن يضعوا الرجاء في شيء آخر لم تستطع العقائد الهيلينية أن تقدمه

اليهم . ولكن ينبغي علينا أن نذكر في الوقت نفسه
اسهام التفكير الاغريقى والتفكير اليهودى بنصيب وافر
فى ميدان الفلسفة والتصوف ، فى المحاولة التى قام
بها الآباء المسيحيون الأولون فى مدينة الاسكندرية
وغيرها ، لعرض الحقائق المسيحية ، اسهاما يقوم على
النظر العقلى ، ويستسيغه العقل ، لا لتعليم المؤمنين
المسيحية فحسب ، بل لتعليمها الوثنيين الذين أشربوا
الفلسفة اليونانية أيضا ، ويكفي أن نذكر فى هذا
الصدد مدرسة التعليم الدينى الشهيرة بالاسكندرية ،
والاسمين اللذين طبقت شهرتهما الآفاق : « كليمنت
وأوريجين » . ويجدر بنا ألا نغفل أهمية ما أسدته اللغة
اليونانية فى سبيل نشر المسيحية ، فالكلمات الأساسية
كافة فى العقيدة المسيحية يونانية الأصل : المسيح
(كريسث) والتعميد « بابتيزم » والافخارستى
والدياكون والقس (بريست) والمطران (يثوب)
والرسول (أبوسل) والانجيل .

وسأشرح بعد قليل ما كان لليونانية من أثر فى
تكوين اللغة القبطية والكنيسة القبطية .

أما البيئة الأخرى ، بيئة الايمان المصرى الخالص ،
والرجاء المصرى الصميم ، فتختلف كل الاختلاف عن

البيئة الحضارية التي وصفتها . فقد كان شغلها
الشاغل إقامة الشعائر التي تطلبها عبادة أوزيريس .
وتقوم تلك العقيدة على توجيه الايمان وتوجيه الطقوس
للحصول على البعث بعد الموت بفضل أوزيريس ، الذي
بعث جيا بعد أن أرداه الشر قتيلا ، ولذا فإن هم المؤمن
المصرى أن يؤدي الطقوس السحرية التي بها تغلب
أوزيريس على الموت ، ولو ان الوازع الخلقى لم يغيب
عن المؤمنين المصريين فقد آمنوا أيضا بالحساب والميزان
يسبقان نعيم الأخرى . فلم يكن عجباً أن تلقى
المسيحية وقد نادت بالمخلص الذى قهر الموت أذنا صاغية
ولقاء حسنا . وكان من عظمة المسيحية أنها لم تجتذب
اليها الطبقة الوسطى الدنيا والطبقة الوسطى العليا
فحسب ، بل انها كانت العقيدة التى اعتنقها عامة
الشعب فى الحضر والريف بحرارة وايمان .

ومن دلائل سرعة انتشار الرسالة المسيحية بين
المصريين الحاجة الماسة الى ترجمة كتب العهد الجديد الى
اللهجات القبطية السائدة فى البلاد ، ويبدو أن اللهجة
المسماة « بالبحيرية » هى التى أصبحت اللهجة الرسمية
للكنيسة القبطية .

ولكن ، الى جانب الكتب المقدسة الرسمية ، نبتت

وفرة كثيرة من الكتابات الدينية غير الرسمية كان يقصد
بها أولا وقبل كل شيء ايجاد مادة قراءة الشعب ، كسير
العدراء ومناقبها ، وروايات تتعلق برسالة المسيح
وعذابه . هذا ، وانا لنستطيع الاسهاب فى موضوع
استمرار الروح المصرية - وخاصة روح الفلاح -
وطموحها وأمانيتها الروحية ، ولكن يكفينا فى هذا أن
نقتبس تلك الجملة من كتابات هارناسك مؤرخ
العقيدة .

« ان المسيحية قد لاءمت فى مصر بين خصائصها
وبين خصائص الدين القديم الأساسية لمدى أوسع مم'
شهدناه فى أى بلد آخر ، اللهم الا اذا استثنينا بلا
اليونان . فان كان أكثر المصريين قد أصبحوا عند
منتصف القرن الرابع مسيحيين ، فمرد ذلك الى أنهم
خلقوا لأنفسهم دينا قوميا من المسيحية وذلك بأن لقحوا
هذه الديانة ببقايا معتقداتهم القديمة وآمالها » .

هذا وبالإضافة الى تكوين اللغة القبطية بمعونة من
اليونانية يجب ألا ننفل نمو الفن القبطى ، أو بمعنى
آدق الفن المصرى المسيحى ، الذى وصلت بعض طرائقه
وأساليبه من ايران عن طريق سوريا ، والذى يمتد
انتشاره جغرافيا الى مدى فسيح يسترعى النظر ، فقد

ذكر « دالتون » فى الدليل الذى وضعه عن أقدم الآثار المسيحية والبيزنطية فى المتحف البريطانى انه عشر على أنية برونزية من طراز قبلى فى مقابر انجليزية سكسونية . هذا ولا يقل اشعاع الفن القبطى زمنيا عن انتشاره فى اقطار الأرض ، اذ أن طرائق الفن القبطى وأساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر الاسلامية وصناعاتها . وهذا دليل آخر على أهمية العنصر المسيحى فى تكوين مصر .

هذا واذا كان الفن القبطى تعبيرا عن الخصائص الدينية لمصر المسيحية ، فان نشأة حياة الرهبنة ونموها لهى وجه آخر من أوجه التعبير ، يعتبره العلماء أكثر ما ساهم به الشعب المصرى بيزوزا وجلاء فى تراث المسيحية .

وانا لنكتفى بالقول دون الدخول فى التفاصيل أن الرهبنة بدأت بفرار الأفراد الى البرية هربا من شرور العالم ورذائله . ثم أخذت شهرة بعض الصالحين النساء تجذب الناس الى العيش بجوارهم ، يلتمسون منهم الهداية . وكان ذلك حال « انطانيوس » الشهير . ولكن يرجع الفضل فى تنظيم الرهبنة الى عبقرية « باخوميوس » . فقد كان للقواعد التى وضعها تأثير بالغ فى نمو أنظمة

الرهينة فى المسيحية الغربية وغيرها ، ولكن الرهينة فى مصر لم تكن أمرا روحانيا صرفا ، بل كانت عاملا فى التطور الاجتماعى ، والتطور الدينى ، فأثرت تبعا لذلك ، فى مصائر البلاد بأجمعها .

وقد انتظمت المسيحية فى كنائس شكلت على طراز الأنظمة الرومانية الامبراطورية ، وتركزت الكنائس الرئيسية فى مدن اشتهرت فى التاريخ ، كالاسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وروما . وكان من شأن اختلاف الأمزجة القومية والمنافسات بين الأمم والأشخاص أن نشأت اختلافات مذهبية ، فنبت ذل النقاش وذاك الجدل الذى شاع وذاع بين أريوس وأثناسيوس فى القرن الرابع ، وانتهت تلك الجولة بأن قرر مجمع نيقية اداة أريوس بالالحاد (الهرطقة) ، كما نشب خلاف آخر حول الأقاليم كان من أثره انعياز الكنيسة المصرية - ومعها فى ذلك كنائس شرقية أخرى - الى رأى فى طبيعة السيد المسيح يعرف بالمذهب المنوفيسى ، أى الطبيعة الواحدة ، وانعازت الكنيسة الامبراطورية الى قول آخر - وعمل هذا النزاع المذهبى وما صحبه من اضطهادات واحن واضطرايات وتدهور اقتصادى على اضعاف الصلة التى كانت تربط البلاد

بالامبراطورية الرومانية عند حدوث الفتح الاسلامى
فى القرن السابع .

وقد فسر المذهبان « المنوفيسى » و « النسلورى »
على أنهما يمثلان احتجاج الشعوب الشرقية على السيطرة
الهيلينية السياسية والاقتصادية والثقافية . وقد أشار
هارناسك ، الحجة الذى سبق لنا الاقتباس منه ، الى أن
بطارقة الاسكندرية لم يقتصر طموحهم على السيطرة
على الكنائس الرئيسية الأخرى ، بل تعدى ذلك الى
التطلع الى أن يجعلوا من مصر دولة دينية مستقلة .
ويؤيد هذا ما ذهبت اليه الآنسة رويار المؤرخة الثقة
للادارة البيزنطية من أن العرب الغزاة لم يروا فى مصر
احدى ممتلكات بيزنطة ، بل بدت لهم مملكة تكاد تكون
مستقلة . هذا وبينما كان رهبان أديرة مصر من أبناء
الفلاحين يؤيدون الكنيسة القبطية فى صراعها ضد
أول الأمر الحاكمين الأجانب ، موظفين مدنيين
وكنسيين ، فانه لا يمكن القول بأن تلك الأديرة كانت
عنصرا من عناصر النظام أو الاستقرار فى حياة
الكنيسة الوطنية ذاتها .

وبالاختصار هذا هو مجمل القول فى هذا الموضوع

الكبير ، وسأحاول في حديثي التالي وصف ما خلفه تراث
مصر المسيحية لمصر الاسلامية .

وآمل أن أبين حينئذ أن خير طريق يسلكه اليوم
مسلمو مصر ومسيحيوها على السواء لكي يفهموا أنفسهم
هو أن يعملوا على فهم الاسلام والمسيحية على حد سواء .

مصر والاسلام

غزت جيوش الخلافة مصر سنة ٦٤٠ بعد الميلاد ،
وقطعت العلاقة التي كانت تربطها بالامبراطورية
الرومانية الشرقية ، وبذا أصبحت مصر جزءا من دار
الاسلام . الا أن العملية التي أصبح بها المصريون
مسلمين يتكلمون العربية تمت بالتدريج ، اذ جاء
انتشار الاسلام عن طريق اعتناق سكان البلاد المسيحيين
الاسلام جنبا الى جنب الا أن انتشار اللغة كان أشمل
وأتم من انتشار الديانة فهي لغة الأهلين كافة - المسلمين
منهم والمسيحيين - على السواء .

ونستطيع أن نقسم تاريخ مصر الاسلامي على وجه
العموم الى فترتين مختلفتين كل الاختلاف في الطول ،

فالأولى تستغرق من منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر ، بينما تشمل الثانية السنوات المائة والخمسين الأخيرة . وقد شهدت الفترة الأولى تكون ثقافة اسلامية بلغت قدرا كبيرا من الاستقرار والتماسك سواء في أيام ازدهارها أو في عصر انحطاطها ، وسواء نظرنا اليها من وجهة بنائها الداخلى أو من وجهة علاقاتها الخارجية . أما الفترة الثانية فقد شهدت اخضاع تلك الثقافة لدوافع وحركات من الشد والجذب ، كانت ذات تأثير بليغ في كيانها . ولما كانت اتصالاتها بالحضارة الغربية هي المسؤولة عن حدوث عوامل التغير - فانى سأتناول الفترة الثانية من تاريخ مصر الاسلامية في حديثى التالى - عن مصر والغرب - خاتمة هذه الأحاديث .

أما هذا الحديث فيتناول نشأة الثقافة الاسلامية ، وبلوغها كمال نموها . وعلى أن أبدأ ببناء تلك الثقافة . فان وقود العرب على البلاد كان ايدانا بيزوغ فجزر عملية جديدة من عمليات بناء الأمة المصرية فاجتذب الشريف المصرى رجال الصحراء اليه - ومازال حتى الآن يجتذبهم . وارتباط مضر يدار الاسلام فتح أبوابها - وبخاصة أبواب مدنها - للمستوطنين من البلدان الاسلامية الأخرى ، وبخاصة من بلاد المغرب

ومن فلسطين وسوريا ، وقيام دول من الممالك ،
واعتماد تلك الدول على جيوش مؤلفة من أبناء الرق
أديا الى قدوم جموع من الجوارى والعبيد من مختلف
العناصر والأجناس من أتراك وشراكسة وصقالبة ومن
اليهم . أضف اليهم مستوطنين من شتى السلالات
الافريقية . والآن نتساءل الى أى مدى تمثلت الأمة
تلك العناصر ؟ اذا اتجه النظر الى أهل الريف فاننا
نجدهم - قديمهم وجديدهم - يستوون فى الانتماء الى
طائفة من الفلاحين ، بيد أن بين الفلاحين فروقا
لا تخفى ، ففلاحو الدلتا مختلفون عن فلاحى الصعيد ،
بل الاختلاف ظاهر من مديرية الى أخرى . أما فى المدن
فكان القادمون الجدد أميل الى الارتباط ممن سبقهم من
أبناء بلادهم ، يزاولون ما يزاول هؤلاء من حرف أو
أعمال ، ومن وفد منهم الى مصر للتعلم ، فانه يلحق
بمعاهد الأزهر « أروقتة » المخصصة لبنى قومه أو
لأهل مذهبه ، ومن جاء للتجارة فانه يستقر فى السوق
المخصصة لسلعه ومتجره ، أو سوق « الأمة » التى ينتمى
اليها . ومع ذلك فلم تكن هناك حواجز تحول دون
الاختلاط ، فاختلط المسلمون الرازيون بالمسلمين من
أهل البلاد ، كما اختلط المسيحيون الذين جاءوا من
الشام بالأقباط وغيرهم .

أما الطائفة التي بقيت بمعزل عن الأهلين فقد كانت طائفة التجار الوافدين من أوروبا ، وقد ظلت طائفة قليلة العدد نسبيا حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وكان مجال نشاطها قاصرا على تجارة الجملة . ولذا لم تتصل الا بقليل من أهل البلاد أغلبهم من الرعايا اليهود والمسيحيين ، ولم يكن للأوروبيين حتى نهاية القرن الثامن عشر أية رسالة ثقافية ، كما أنهم لم يتلقوا شيئا ما عن الأهلين ، الى جانب ذلك نشطت التجارة مع بقية العالم الاسلامي ومع تلك البلدان فيما وراء البحار ، في قارتي افريقية واسيا التي وصل اليها نشاط التجار العرب وسفنهم ، وهذا الاتصال المستمر المستديم بالعالم الخارجي هو الذي يميز تاريخ مصر الاسلامية عن تاريخ مصر المسيحية ، ومما يفسر هذا الفرق بين التاريخين أن مسيحي مصر (فيما عدا فئة قليلة من العلماء) لم تجمعهم بالعالم المسيحي في الشرق والغرب لغة مشتركة كاللاتينية والسريرية ، وكانت لغتهم القبطية وقفا عليهم وحدهم ، بينما كان لدى مسلمي مصر ولسانهم - العربية - وسيلة المشاركة في حركة الثقافة الاسلامية .

ولكن هل تعنى تلك المشاركة أن ليس لثقافة مصر الاسلامية ذاتية خاصة بها مميزة لها . وللإجابة على

هذا السؤال نقول : انه كان لمصر - شأنها في ذلك شأن الأقاليم الكبرى لدار الاسلام - ذاتيتها ، ولكن ، يجب ان نتذكر دائما ان احتفاظ مصر بذاتيتها لم يكن من شأنه النزوع نحو العزلة او الانطواء على النفس ، بل كان يتجه نحو الملاءمة بين العناصر الثقافية المستوردة وبين بيئة خاصة ، وهنا نقرر ما كان للعناصر المسيحية المصرية في البلاد من الأثر الكبير في اجراء تلك الملاءمة سواء منهم في ذلك من احتفظ بمسيحيته او تحول الى الاسلام ، فقد علموا الوافدين على البلاد كيف يعيشون تلك العيشة التي تلائم خير الملاءمة ظروف مصر ، من حيث اساليب الزراعة وطرائفها ، ونظام حيازة الأراضي ومسحها وريها ، وما يستتبع هذا كله من نظم ادارية ، وكذلك الصناعات القائمة على استخدام المواد الأولية التي بين أيديهم على احسن ما يتفق وأحوال البلاد الطبيعية ، هذا الى جانب وضع الانماط والرسوم التي ترضى أذواق الاهلين المتوارثة - أما عن مساهمة الاقباط في الجانب العقلي من الثقافة الاسلامية فأمر ليس من اليسير الكلام فيه ، واني لأرى أن من الأسلم لنا أن ندمج العنصر المسيحي المصري الخاص في مجموع ما ساهم به الفكر الهيليني والفكر السرياني المسيحي في بناء صرح الثقافة الاسلامية عامة ، ولا أستثنى من

هذا القول الا شيئين - أولهما : أن ثمة ظروفًا مصرية محلية أثرت في اتجاهات معينة للفقهاء الاسلامي .
وثانيهما : هو أثر مساهمة الأدب الشعبي المصري القديم في الأدب الشعبي العربي .

ونتناول بعد ذلك باختصار موضوع « الذاتية » المصرية في حركة التاريخ الاسلامي ، ونظرا الى أن هذا الوجه من أوجه الثقافة هو أكثر استجابة لأثر البيئة الجغرافية ، فإننا نلاحظ أن تطور مصر الاسلامية يجرى على نسق خاص بها . بيد أن هذا الاتجاه كان في الوقت نفسه سريع التأثير بمبادئ الاسلام الأساسية ، وبالحركات الاسلامية عامة ، كما حدث أحيانا أن مصر لم تعد أن تكون مجرد أساس اتخذته من اتخذته للعمل على تحقيق غايات تخص مصر وغير مصر .

هذا وبينما أقرر صحة هذه التحفظات فإنه من الواضح الجلي أن تاريخ مصر سار وتطور وفقا لخطوط تختلف اختلافا بينا عما سار عليه تاريخ العراق ، أو تاريخ المغرب . ولم يكن شأن مصر ولاية ممتازة من ولايات الخلافة الاسلامية أو الدولة العثمانية شأن الولايات الأخرى ، وكذلك لم يكن شأن مصر مقرا لخلافة شيعية ، أو دولة من دول المماليك شأن الممالك الاسلامية الأخرى .

والآن يجدر بنا أن نتساءل : ترى كيف يمكن أن نقارن الثقافة الإسلامية التي نمت وترعرعت في بلادنا بثقافة البلدان الإسلامية الأخرى ؟ إن الرد على ذلك يمكن أن يلخص في العبارات الآتية : ..

ان ثقافتنا الإسلامية بلغت مستوى وسطيًا ، فلم ترق الى ما سمت إليه في ديار أخرى ، كما لم تهبط الى ما هبطت إليه في ديار أخرى . وإن أصالة ثقافتنا الإسلامية لترجع الى تماسكها الشامل وارتباطها بالمحتم أكثر من رجوعها الى أى وجه خاص من أوجه الحياة الثقافية . فهي - مثلاً - لم تنتج من الشعر الرفيع ما أنتج العراق ، كما أن التفكير الفلسفى لم يزدهر عندنا بقدر ما ازدهر فى الأقطار الشرقية من العالم الإسلامى . حقا اننا أسهمنا بقدر ذى شأن فى نمو علوم اللغة والدين ، ولكننا لم نخرج الى الوجود ذلك النوع من الآراء الذى تقوم عليه المدارس والمذاهب ، وقد ينطبق هذا القول على فن العمارة ، فانتاجنا جيد الا أن الأسس تصلنا من الخارج . أما الوجه الثانى المميز لثقافتنا الإسلامية فهو بقاؤها على الزمن واستدامتها أطول مما دامت فى البلدان الإسلامية الأخرى . أضف الى ذلك أنها لم تتلق ضربات قاصمة ، أو تصب بنكبات كالتى حلت باخوان لنا فى الدين ، فمن ذلك أن مصر

لم يصيبها شيء يمكن أن يقارن بما حل بالمغرب على
أيدي القبائل البدوية ، أو بما لقيه الاسلام في اسبانيا
من اباداة وافناء ، أو بما حل بالشام والعراق وما
يجاوره من تدمير وخراب على أيدي المغول -

ولم يبدأ صرح حياتنا الثقافية في الاهتزاز
والتخلخل الا عندما دق الغرب على بابنا في نهاية القرن
الثامن عشر بحملة جيش من الغزاة الفرنسيين ، وسوف
أتناول شرح ذلك في حديثي التالي عن «مصر والغرب» -

مصر والغرب

هذا آخر حديث فى سلسلة أحاديثى ، وهو يتناول تطور المجتمع المصرى فى السنوات المائة والخمسين الأخيرة . وهى فترة توثقت صلات البلاد خلالها بالغرب . وقبل أن أبين لكم الحقائق الكبرى لهذا الاتصال - كما أراها - أود أن ألفت أنظاركم الى بعض الاتجاهات التى تسترعى النظر ، ولا سبيل الى اغفالها عند بحث هذا الموضوع . وأولى تلك الاتجاهات هى أن المؤلفين فى هذا الموضوع يكتبون ، كما لو أن الشعب المصرى يتعين عليه أن يختار موقفا حاسما يلتزمه دون رجعة .

وعلى أساس هذا الافتراض يشرع من نصيبوا

انفسهم ناصحين لنا فى الافضاء اليها بما يجب علينا
اتباعه ، فمنهم من يشير بان نسير على نهج الحضارة
الغربية فى صميمها ، او فى بهرجها ، ومنهم من يعاوده
الحنين الى عصر رمسيس الثانى ، او الى الجمع والخلط
بين محاسن ما يمكن ان نلتقطه كافة من هنا او من
هناك .

ولا حاجة بى الى ان آبين فساد هذا الافتراض ،
حقيقة أنه قد تحدث ظروف فى تاريخ الجماعات يتعين
فيها اتخاذ قرارات حاسمة ، ولكن لم يحدث أبدا ان
طرا موقف كان لزاما فيه الانحياز الى رأى نهائى ، أو
موقف محدد المعالم لا رجعة فيه .

فالجماعات فى تطور دائم ، وكل ما فى الأمر ان
سرعة التطور تزيد فى بعض الأحيان عنها فى بعضها
الآخر .

والانتباه الثانى الذى يميل اليه بعض المؤلفين هؤلاء
الاعتقاد فى أن ما يفتري مجتمعنا من أزمات ظاهرة
خاصة بنا ، والصواب أن الشغوب الآخرين تشترك معنا
فى هذه الحال ، ومنهم الغربيون أنفسهم . - أخيرا أية
مشكلة أو أية مسألة يختلف عليها الناس : مشكلة
السياسة ، أو الأسرة ، أو العلاقات أو مدى تدخل الدولة ،

أو مسائل التصنيع ، أو الاقتصاد الزراعى ، أو المسائل المتعلقة بالديموقراطية بنوعيتها الشعبى والبرلمانى ، أو تجريد الدولة من الصبغة الدينية ، أو السيادة القومية المطلقة والنظام الدولى . ليس فى هذه المسائل ما هو خاص بمصر أو بالمغرب أو الشرق . فكلها مسائل ثابتة من صميم العصر الذى نعيش فيه . وكل ما هنالك أن هذه المسائل ومثيلاتها تتخذ أوضاعا مختلفة فى مختلف المجتمعات ، كما أن من هذه المشكلات ما قد يكون أكثر ضغطا وأشد إلحاحا فى بعض المجتمعات عنه فى بعضها الآخر .

وفى المقام الثالث ميل الكتاب الى أن يضعوا مصر مواجهة لمجتمع غربى ثابت . والواقع أنه قد طرأ على الغرب من التحول خلال المائة والخمسين سنة الماضية ما هو أبعد مدى مما انتاب مصر خلال تلك الفترة . ومن رأى أن توهمهم وجود غرب ثابت لا يتحول أو يتحرك ، أو على الأقل فيما يختص بعلاقته بنا ، يرجع الى سببين :

أولهما : أن السياسة التى تسير عليها الدول الأوروبية نجونا بالفعل لم تكن عادة مما يتجاوب تجاوبا ناجزا وما كان يحدث فى أوروبا من تطورات

اجتماعى . لا ، بل بلغ الأمر أن كانت تلك السياسة تتعارض فى بعض الأحيان تعارضا بينا ومبادئ العلاقات الاجتماعية السائدة فى أوروبا .

وثانى السببين : هو أن الأثر الذى تتركه فترة من فترات الاتصال بأوروبا فى أذهان قومنا قد يبقى طويلا بعد أن تطوى حواشي تلك الفترة فى سجل النسيان . وأتخيل ، على سبيل المثال ، أن مرور الفرنسيين من جند ومدنيين - خلال احتلالهم لبلادنا عند نهاية القرن الثامن عشر - فى مدننا وريفنا اثر فى آراء المصريين كافة ، لجيل أو لجيلين ، عن الفرنسيين لا بل عن الفرنجة أو الاوروبيين كافة .

وقد كان هؤلاء الفرنسيون أول الغربيين الذين اتصلنا بهم فى العصور الحديثة . وقصة غزوهم مصر ، اذا نظرنا اليها من الناحية الضيقة المحدودة ، لا تعدو أن تكون فصلا من فصول المنازعات والمنافسات التى شبت فى عصر الثورة ، وبخاصة المنافسة بين انجلترا وفرنسا ، ولكن اذا نظرنا الى الأمر من ناحية أكثر عمقا وأبعد مدى ، رأينا أن الحملة الفرنسية كانت نتيجة لثلاث ثورات أوروبية : الثورة العلمية ، والثورة الصناعية ، والثورة الفرنسية . فالثورة العلمية بعثت

نظرا جديدا فى عالم الطبيعة والمجتمع الانسانى ،
والثورة الاقتصادية بعثت دوافع جديدة لوضع موارد
الأرض كلها تحت تصرف الرجل الأوروبى ، والثورة
الفرنسية بعثت ادراكا جديدا لمبادئ التنظيم القومى .
كانت هذه الأشياء العوامل التى فتحت عهدا جديدا فى
تاريخ التوسع الغربى . فكان لابد للأوروبيين من أن
يملكوا أوطان الجماعات الاسلامية والآسيوية أو ان
يسيطروا عليها ، أو أن يوجهوها لبيعثوها من جديد
فتولى وجهها نحو الغرب وتسير فى فلكه ، وتصبح بذلك
شيئا نافعا للغرب .

ومعنى نفعها للغرب عند الغرب أنها عندئذ تنفع
نفسها أيضا وتنفع العالم بأسره . بيد أن اندماج تلك
الشعوب فى الغرب اندماجا كاملا لم يكن مستحبا
لسببين ، اذ أنه يمكن أن يعتبر مناقضا للمواثيق التى
تعهد بها القوم أن يحترموا عقائد المصريين الدينية
وعاداتهم ، وثانيا : أنه لم يكن هناك سبيل الى تحقيقه .
وحتى لو كان ذلك ميسرا لما كان فى جانب مصلحة
الحكام الأوروبيين أو الحكوميين .

وكان الاحتلال الفرنسى قصير الأمد بيد أن نتائجه
وعواقبه كانت بعيدة الأثر فى التاريخ ، اذ كان هذا

الاحتلال حافظا لولاية مصر في البدء على عملية عمارة
وانشاء بوسائلهم وطرائقهم الخاصة .

وقد تشكلت تلك الطرائق وفقا لآراء الحكام
الشخصية في السياسة والاجتماع ومثلهم العليا، ووفقا
لطبيعة الظروف المحلية ، مادية كانت أو أدبية ، فضلا
عن تأثير القيود المفروضة على سلطتهم الفعلية . وهذه
القيود فرضتها السيادة العثمانية ومصالح الأوروبيين
وما كان يجرى بينهم من منافسات . ولذا كان الانشاء
واسع النطاق ومحدودا في آن واحد ، كان يتسم
بالفخامة والضعف معا ، وكان أن أورثنا ذلك العهد من
تاريخنا مبادئ استقرت أساسا لكياننا القومي، أوردها
فيما يأتي :

أن مصر هي القلب النابض لمجال حيوى يمتد الى
ما وراء حدودها ، أن التجديد شعار المجتمع، أن الموارد
تعبأ ، وأن المجتمع يخضع لسلطان موحد .

ولكن كان ينبغي لكى تؤتى هذه المبادئ ثمرتها
أن يعامل الفرد المعاملة الخليقة بالمواطن ، فإن اخضاع
الشعب لسلطة عليا لا تخضع لسلطان القانون كان معناه
اخضاعه لقوة غشوم مدمرة توجهها الأهواء ، كما أن
تعبئة موارد البلاد دون وازع من الانصاف أو التقدير

للاعتبارات الانسانية لم يؤد الى تبراء الأمة ورر خائها
بل أدى الى تقوية شهوة القلة الوطنية والأجنبية
المستغلة ، واشباع نهم طائفة لا قلب لها ولا ضمير ،
كما أن سطحية نظام التعليم واتجاهه نحو أهداف نفعية
ضيقة لم ينشئ فريقاً من « الصفوة القاضلة » بل خلق
أدوات ادارية فاسدة لا تحسن أداء ما عهد اليها به .

ويجب أن أضيف الى ذلك القصور وتلك العيوب ،
مشكلات الأزمات الدبلوماسية والمنافسات الدولية
وما يصحبها من قلق واضطراب ، ومشكلات رأس المال
الأجنبي والمستوطنين من الأجانب ، الساعين الى شق
طريق الرزق في البلاد .

لقد انهار النظام الخديوي في العقود الأخيرة من
القرن الغابر ، ومن ثم سارت سفينة الدولة على غير
هدى وفي مهاب الريح حتى ارتطمت بالصخور .
ونجحت دولة أوروبية في فرض سيطرتها وجمع أزمه
الأمور في يديها ، هي انجلترا .

ولو كان لسياسة الاحتلال البريطاني في مصر أن
تتخذ لها شعاراً لشهدت أنها حملة دالماً . ردت في
كتابات كرومر : « ألا وهي : » بقدر معلوم . فيجب أن
يكون لنا نصيب كل شيء بقدر معلوم . نصيب من

الاستقلال ، ومن الولاية العثمانية ومن الصلة
ببريطانية ، ونصيب في السودان ، ونصيب من الحكم
الشخصي ، ومن أنظمة الحكم الذاتي . ونصيب من
الرقى الثقافى والاقتصادى وهلم جرا .

ولم يكن الهدف الرئيسى الذى وضعه كرومر نصب
عينيه أن يجعل مصر للمصريين ، وقال انه لم يكن واثقا
مما يعنى ذلك ، بل مصر لسكانها كافة . ومن الجلى أن
مصر من هذا النوع لا بد لها من وجود قوة تقوم بدور
الوساطة فى النزاع المحتوم بين الأجناس والمصالح ، أى
تقوم فى الواقع بدور الرجل القوى الفيصلى الذى
شهدته مدن القرون الوسطى المضطربة ، وبالطبع لا بد
أن تكون تلك القوة هى انجلترا .

بيد أنه غاب عن بال كرومر تماما أن التسوية
النهائية لأمر مصر ستكون مع شعب مصر ، وهذا هو
المعنى الذى انطوت عليه ثورة عام ١٩١٩ . بيد أن
الآمال التى ولدتها ثورة ١٩١٩ فى بعث قومية جديد
لم تتحقق ، فلم تكن لدينا شجاعة الايمان بما كنا ننادى
به ونجهر ، فمنحنا الشعب كلاما ، وكنا أنانيين ، وكانت
المعاذير التى كنا نتذرع بها لاختفاقنا أقل مما كان
يلتمسه أبائنا عام ١٨٨٢ لأننا شيدنا على ما تركوه

وراءهم ، وكان فى وسعنا أن نتعلم من أخطائهم .
ولكن مع ذلك لا ينبغي أن نغفل عما واجهنا من صعاب ،
فقد كنا نسعى جهدنا فى أن واحد وقد حاولنا القيام
بذلك ، بينما كنا نخشى أن تمتد الى شعبنا الدعوات
الأوروبية الجديدة القائمة فى روسيا وإيطاليا
وألمانيا ، فترددنا فى تعبئة مواردنا الحية والمعنوية .
وترتب على ذلك أن حذرنا خدو كرومر ، أى أننا حاولنا
الحصول على شىء من كل شىء بقدر معلوم . شىء من
المحافظة على التقاليد مع مساهمة روح العصر ، وقدر من
الراسمالية ، وقدر من الاشتراكية على السواء ، وقدر
من الزهو والتظاهر ، مع مقدار من عدم الاعتداد
بالنفس .

وقد شهدنا كما شهد آباؤنا « انهيار الحكم » مع
هذا الفارق ، وهو أن انهيار ١٨٨٢ أعقبه الاحتلال
البريطانى ، بينما الانهيار الذى حدث فى زماننا خلف
لنا مولد الجمهورية المصرية . وان مجرد الاسم فى ذاته
ليحمل فى طياته برنامجا كاملا للانشاء على أساس المبدأ
القائل : بأن أكبر مقدار من السعادة يجب أن يحقق
لأكبر عدد من الأهلين . وان خير تعريف تتخذه
الجمهورية المصرية لنفسها فى العصر الذى نعيش فيه
لهو ما قاله الفيلسوف « برك » :

« لا يجب اعتبار الدولة شيئاً أفضل من كونها اتفاقاً
على المشاركة في المنافع ، بل هي مشاركة في الملوم
كافة ، ومشاركة في الفنون كافة ، ومشاركة في
الفضائل كافة ، وفي الكمال كله » .

فهرس

٧	• • • • •	نقسدیم
١١	• • • • •	مصر عبة المصرین
٢١	• • • • •	الاسمرار والنغیر فی تاریخ مصر
٣٣	• • • • •	الحکومة والمجتمع فی مصر
٤٥	• • • • •	الانسان والمجتمع فی مصر
٥٥	• • • • •	المدينة والریف فی تاریخ مصر
٦٥	• • • • •	مصر والعهد القديم
٧٢	• • • • •	مصر والهیلینیسة
٩٢	• • • • •	مصر والمسیحیة
٩٢	• • • • •	مصر والاسلام
١٠١	• • • • •	مصر والغرب

● صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمى الطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات
- ٩ - صحاح مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكري القاضي
- ١٢ - هدى شبعزاولى وعصر التنوير
د. نبيل واغب
- ١٣ - أكلوبة الاستعمار المصري للسودان
د. عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر في عصر الولاة
د. سميحة اسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي
د. علي حسن الخربوطلي
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر
د. هاني أحمد شلبي
- ١٧ - القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني
د. محمد نصر فرحات
- ١٨ - الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية
د. علي السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي
د. محمد أنيس
- ٢١ - التصوف في مصر أبناء العصر العثماني ج ١
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر
جمال بدوي

- ٢٢ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ج ٢
توفيق الطويل
- ٢٤ - الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ح ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٩ - مصر فى عصر الاخسيدين
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ٣٠ - الموظفون فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يوانان لبيب دزق

- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى
والاجتماعى فى العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال
-

هذا الكتاب :

يعد بانوراما شاملة لتاريخ مصر عبر العصور من منظور فلسفى ، ربما كان المؤرخ محمد توفيق غربال متأثرا فيه بأستاذه المؤرخ والفيلسوف البريطانى « ارنولد توينبى » الذى لم يقف عند عصر معين أو بلد معين أو حضارة معينة وإنما درس كل الحضارات .

وهذه الرؤية التى قدمها المؤرخ يتعذر على غيره من المؤرخين القيام بها لارتباطهم بتخصصاتهم العلمية فى الحقب والعصور الزمنية المختلفة .

وقد دعى المؤلف لتقديم رؤيته فى عشرة أحاديث عن تاريخ مصر باللغة الإنجليزية وجهت من الإذاعة المصرية إلى العالم الخارجى ، وقام بتعريبها بمعاونة محمد رفعت وصدرت فى كتيب عام ١٩٥٧ ،

وقد رأينا إعادة طبع هذا العمل التحليلى الإعجازى لما له من أهمية علمية جليلة